فاتن فاروق عبد المنعم

فقاعات صابون

قصص قصيرة

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادى

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة: الأولى
الكتاب: فقاعات صابون
المؤلف: فاتن فاروق عبد المنعم
تصنيف الكتاب: قصص قصيرة
التصميم والإخراج: م/مارك منير
المقاس: ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع: ١٩٧١٩ / ٢٠١٨
الرقيم الدولى : 978 - 977 - 776 - 763 - 7

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة
التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢
Email : yastoron@gmail.com
موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

تنهيدة

يتَنَقَّلُ بين حافلات الرُّكاب، حاملاً بضاعَتَهُ المزجاةِ، سعيًا خلف كفافٍ معيشيٍّ، يُحَصِّلهُ أحياناً، أو لا يكاد . يقفز إلى الحافلة في خفَّةٍ، يشقُّ لنفسه ممرًا، بين الأجساد المكدَّسة المتراصَّةِ، تقتضب ملامح أحدهم، وقد غَشِيَتهُ رائحة عرقه، أخذ في النداء على أشيائه، التي رتبها على لوحٍ خشبيٍّ، يتدلي على صدره، بواسطة حبلٍ يدور حول رقبته.

أقلام تمام، تكتب بها كتابك على المدام، وفرش أسنان تخليك إنسان، ودبابيس طرح...، ومقوار للكوسة والباذنجان، يتبعه بشرح لطريقة الاستخدام، يتململُ بعض الركاب، والبعض يتابع بشغف واهتمام، بينما الغالبية انصرفوا للتهوية، على وجوههم، بأيديهم من شدة الحر، لايعيرونه اهتماماً، قليلون هم أولئك الذين امتدت أيديهم بالقروش الزهيدة، لبعض المشتريات، بينما انشغل البعض الآخر، كلٌّ بشأنٍ جعله في عزلة تامة وغياب عمن حوله، فهذه فتاة تمسك بالهاتف، ترتبُ لموعد مع شخص ما، وأخرى يعلو صوتها بالتهديد والوعيد، فيهتز المحمول في كفها، على وقع انفعالاتها، غير المنضبطة، وآخر يمسك بـ (الفون)، يتنقل

بين الأسطر والصفحات، وآخران يتحدثان بأسف عما جرى لمسلمي بورما، يقاطعهما ثالث: لا تشغلا بالكما كثيرًا، فكلنا عاري الظهر.

يعود ليجمع أشيائه التي فرقها للعرض، يترك الحافلة، باحثا عن أخرى، يقلِّبُ فيها رزقه، أقبلت الحافلة، هم بالصعود إليها، ثم تراجع للوراء، فهو يقاوم منذ ساعات حاجته إلى التبول، يسير متجاوزاً، محالاً تجارية، ولوحات إعلانية عن أشياء لا يراوده حلمٌ شرائها، ينتحي جانباً، فيتناهى إلى سمعه صوتُ من التلفاز، ينطق بحروف فخيمة، عبارةً باهتةً، ما أكثر ما اعتاد سماعها، لا يفهم معناها، ولم يحاول أن يفهم:

"مصر سبعة آلاف سنة حضارة، مصر أم الدنيا، لابد أن نعمل جميعاً من أجل أمِّنَا مصر". يتمتم: أمنا وتفعل بنا هكذا؟!. فماذا لو كانت زوجة أبينا؟.

ينتهي من إفراغ مثانته المتلئة، على عجل يدس قميصه في بنطاله، ويحكم ربط الحزام، يقترب من محل فلافل، يبتاع رغيفاً، وقرص طعمية، يجلس على الأرض، يتناوله بشراهة، لعله يقتل الجوع الذي بسبعة أرواح.

يطوف بخاطره طيف زوجته، التي تستيقظ باكراً، لتلحق دخول الحمام، قبل أن يسبقها الآخرون، فتكون في آخر الصَّفِّ، وبعد إطعام الصغار، بشكل مجازي، وخروجهم إلى مدارسهم، تجلس

لترتق وتصلح تلك الملابس، خرج بيوت الأكابر، لتقوم ببيعها، وتستمر حتى المساء، فينامون جميعاً، هما وأبناؤهما الأربعة، في تلك الحجرة، داخل شقة مؤجرة لأكثر من عائلة.

جلس على الرصيف المواجه للمقهى، على الشاشة فيلم لهند رستم، وقد توزع اهتمام رواد المقهى، بين مشاهدة الفيلم وبين رفيقه الذي يتحدث معه، ومنهم من انتبه بكليته، وآخر قهرته رغبته في النوم ومال برأسه متكأ على راحة يده فعلا صوت آكل الرغيف، وكأن الآخر سيسمعه:

"فوق يا ابن المسطولة دي هند رستم"

ينتهي من التهام الرغيف، يقوم ليواصل سعيه بين الحافلات، يرفع عينيه إلى أعلى، تغشاه قبلة حميمية، عبر الشاشة المعلقة، لتزيد شعوره بالحرمان، من مثل هذا الجسد، باهر الحسن، ساحر الصنع، والشفاه المكتنزة، حتى ولو كانت محشوةً بالسليكون، والأنثى التي تقوم بدورها بمهارة. يمضي آسفا، فهذه القبلة من زوجته، يبثان فيها بعضاً من شقائهما، نشاط ليلي يرغمان عليه، إذا علا صوت الحياة بداخلهما، فيلقمانها قبلة تشكو من أحشاءٍ، تصعد منها رائحة الجوع، وأجساد تمازجت مهزومة، لا يمكنها الشكوى من رائحة العرق، وأصوات اللذة ليست إلا أنيناً مكتوما، كأنها شكوى كيانات معتلة، فحروف العلة لاتغادر صفحته اليومية.

يبلغ سمعه هسيس أوراق الشجرة، تلك التي ألقت عليه بشلال من هواءٍ خريفيٍّ، يحمل برودة لطيفة، تزيح عنه قيظاً امتد طيلة شهور الصيف، جعله ينظر إليها مشدوهاً، وتلك الأوراق الذابلة، التي سقطت تحتها تعلن انتهاء الحياة فيها، وتُجَلِّي قانون الطبيعة "البقاء للأقوى"، هو يشبهها ولكن الفارق كبير بينهما، هي أذعنت للحقيقة وهو يحتج ويعاند ويكابر، ويبعث الحياة كل يوم في ميت موتاً محققاً، يلهث خلف آمال وضيعة، لن تتحقق . وقبل أن يصعد الحافلة، يبصق عن يساره، فيتطاير رذاذ بصاقه على مجمل مفرداته الحياتية.

أم البنات

أهرول أنا وأختي، مغلفتين بالخوف التقليدي في مثل هذه الحالات، كنت في الصف الثالث الثانوي وأختي بالصف الأول، نمضي ونحن نتلفت من حولنا خشية أن يرانا أحدٌ يعرفنا ويخبر أبانا بوجهتنا التي تختلف عن طريق المدرسة، بلغنا قضبان القطار الفاصل بين بيت جدي لأمي وبيت أبي، وقفت أمنا ترقبنا من بعيد متمنية لنا السلامة.

أهمس لأختي بصوت متهدج: «بسرعة» تستجيب مهرولة.

يعترضنا قطار بضاعة طويل جدا، فأقول لها «لننحني أسفل القطار لنقطع الطريق بديلا عن الدوران حوله مما يؤخرنا ويثير الريبة فينا»

كان من خلفنا رجل ثلاثيني بث وجوده فينا بعضا من الخوف من سمعنا المسبق عن حالات تحرش أو اغتصاب مما ضاعف من هلعنا، همس بكلمات لم نصيخ السمع لها.

تتقدمني أختي، فتنحني أولا ثم أعقبها، تستقيم قبلي بعد الخروج من أسفل القطار، بينما يتحرك القطار بسرعة وأنا تحته فتصرخ بعد أن استشعرت أن الخطر يقترب مني.

مازال الرجل الثلاثيني يتبعنا، اقترب منا بعد أن تجاوزت

الخطر المحدق بي واستقامت قامتي، ثوان معددودة غيرت كيمياء دمي، فتجمد الدم في عروقي وجف حلقي وتفصد جبيني عرقا أنا وأختي نتبادل نظرات صامتة بمفردات مستفسرة دون أن نهتدي وعلانا شعورالعائد إلى الحياة من الموت، أمسك بيدها ضاغطة لأتغلب على ارتعاش لازمني لبعض الوقت، وكانت هي الأخرى تخفي ارتعاشها بالضغط على يدي كأننا طفلتين، تلوز كل منا بالأخرى وتتقوى بها ولم تخلو نظراتنا من إشفاق على الأخرى.

كان الرجل الثلاثيني يرقبنا، اقترب منا وقال:

«القطار كان يتحرك ببطيء قبل أن تنحنيا لتعبرا القضبان وحذرتكما ولم تلتفتا لتحذيري».

شكرناه وهو الذي أخذ يبثنا الطمأنينة بكلمات معتادة في مثل هذه المواقف.

مر القطار سريعا ووجدنا أمنا أمامنا وقد علقت الدموع بعينيها كأنها ضلت الطريق إلى وجنتيها، تتلمسني، تطمئن أنني بخير، نقول لها معا لنخفف عنها ما ألم بها: «نحن بخير لاتقلقي».

لم تبال بما قلنا كأن في أذنيها وقرا، فقد كان الثابت في مرآها أن القطار تحرك وأنا تحته.

مضينا في عجالة مقهورتين وكلانا تسأل نفسها: لماذا يفعل بنا أبانا ذلك؟

لماذا كنا دائما الأداة التي بها يقهر أمنا ونحن معها؟ نذعن لقدرنا مرغمتين.

ويمضي يومنا بعد أن حاولنا جاهدتين أن نبدوا طبيعيتين فلم يعرف أبانا أننا ذهبنا بعد المدرسة مع أمنا لبيت جدي حتى نقيس الفساتين التي تخيطها لنا، ولو استأذنا أبانا فلن يوافق.

أبانا يضيق علينا الخناق فلا يوافق أن نذهب لرؤية أمنا بسهولة، في أيام الدراسة يقول هذا تعطيل للمذاكرة، فتأتينا أمنا إلى المدرسة كل يوم خميس نقف معها حوالي عشر دقائق بعد انتهاء اليوم الدراسي ويقتلنا فضول زميلاتنا اللآتي تمعن في الإستفسار ونحن نتهرب من الإجابة.

نخلو لبعضنا ليلا ونحن نذاكر ونسأل بعضنا البعض: لماذا يفعل بابا ذلك دون أن نهتدي ثم تقول كلانا للأخرى: «لماذا بابا متعنت بهذه الصورة؟».

كنت لم أبلغ الثالثة من عمري عندما انفصل أبوانا بعد أن استنفدا عدد مرات الطلاق الثلاث المسموح بها.

في إحدى مرات حدوث الطلاق، بينما أمي في طريقها إلى بيت أبيها من على القضبان ذاتها التي كنت أعبرها أنا وأختي، كان أبي يحملني وأمي تحمل أختي ويحاول الإتفاق معها على طريقة عيشنا فيقول لها: إنه سيأخذني وتأخذ هي أختي.

فتذمرت أمي وقالت له: «هل نحن نتقاسمهما»

تزوج أبي بعد أمي عدة مرات وكلما تزوج واحدة قال لها:
«أنا لم أحب سوى أم البنات ثم تعيد علينا المسكينة هذه الجملة فنلوذ بالصمت دون إجابة.

الآن أنا وأختي على مشارف الخمسين، كنا في زيارة لأبانا فجلست معنا زوجته وتناثر الحديث بين ثلاثتنا ثم قالت لنا جملة أبي الأثيرة:

«أنا لم أحب سوى أم البنات»

والغريب في الأمر أنها تقول لنا ذلك وهي تضحك فألوذ بالصمت كاتمة غيظي لها، وهذا دأبي الصمت وقت الغضب حتى لا أطلق الرصاص من فمي، بينما أختي تجيبها:

«وماذا فعلنا بهذا الحب»

انصرف أنا وأختي فأنفث عن غيظي وأقول لها:

«تصوري لو أنا مكانها وزوجي يقول لي أنا لم أحب سوى فلانة لأحلت حياته جحيما، ما السبب القاهر الذي جعله يتزوجني وهو يحب أخرى وما دوري في بيته رجل كرسي؟!

تقول أختي بأسى: «أم البنات الآن لايمكنها الذهاب إلى الحمام دون العكاز، بابا حل اللغز الذي حيرنا سنين»

لماذا كان يضيق علينا الخناق في اللقاء بها، كنا السوط الذي يلهب به ظهرها لأنها تزوجت بآخر.

بكر في المحروسة

في ستِّينيات القرن الماضي، حَضَر «بَكْر» من قريته إلى القاهرة، طالبًا بالأزهر.

أقامَ في حُجرة بحي الحسين، كانت سعادتُه بالغةً وهو يسير في الشارع بزيِّه الأزهري، وتبلغ قمتَها إذا ناداه أحدُهم بمولانا، أو لاقى التبجيلَ والترحيب؛ لأنَّه الأزهري، فيُقبل على دروسه في أمَّهات الكتب ينهل دونَ شبع؛ حتى لا تنزويَ عنه هذه المكانة، خاصَّة وأهل قريته ينظرون إليه بالإعجاب، ويرَوْنه الشيخَ الطليعة، والنبتَ الطيِّب الوليد.

يجلس بين كُتبِه وأوراقه، يحفظ ويعلو صوتُه، يتضايق رفيقاه النائمان لبعض الوقت، يَعِدُهما بتخفيض صوتِه دقائق، ويعود صوته جهوريًّا مرَّة أخرى، فيزداد تبرمُهما أكثرَ وأكثرَ، فيخرج إلى الشرفة حتى يبتعدَ عنهما، ويحفظ أثناء سيرِه جيئةً وذَهابًا، وكانت طريقة مثالية؛ لكونها أبعدتْه عن رفيقيه، والهواء يداعب جلبابه مخترقًا رئتيه، وعمومَ أعضائه، فيشعر بالانتعاش الذي يَزيد من حماسه في إقباله على دروسه.

في الشُّرفة المقابلة وقفتْ فتاة تتطلَّع إليه خلسةً، ولكنَّه لَمَحها فحرَّكتْ مكنونَه، خاصَّة وأنها جميلةُ الملامح، ذات شعر بُنيٍّ

مموَّج، ينسدل على كتفيها بأريحية، وعيونها نجلاوين، ترتدي (فستانًا) منزوعَ الأكمام، مبديًا جِيدَها ونَحْرَها، ومَفْرقَ نهديها المتكورَين، تلتفتُ وتواصل سيرَها إلى داخل البيت، تسير الهُوينَى عامدةً؛ لتُظهرَ قوامًا منسقًا جميلاً، وساقين ملتفَّتين، مُتقنتَا الصنع!

وقف يرنو إليها، وقد بدتْ كتمثال بشري يُؤسَر الناظرُ إليه، وقف لا يُبدي حراكًا، كأنَّما دُقَّ في الأرض، تتوقَّف قليلاً، وتلتفت تنظر إليه لتتوثَّق من تأثيرها عليه، فتنبئها ظواهرُه عمَّا اعتراه، فتبتسم، ثم تواصل السير، وقد خلف بداخلها ارتياحًا يُرضِي غرورَ الأنثى.

يَقتحم أُذنيه صوتُ بائع الترمس، فتدبُّ الحياة في التِّمثال، ويعود للسير جيئةً وذَهابًا، ممسكًا الكتاب بين يديه، يُذاكر ويحفظ، ولكنَّها نالتْ من ثباته واستقراره، فأصبح مِن آنٍ لآخرَ ينظر إلى شُرفتِها، علَّها تعود للظهور مرَّةً أخرى، فإنْ رأى طَيفَها من داخل شقَّتها وخَزَتْه سعادة لثوان، فإن استبدل الطيف بحضور كامِل منها غمرتْه السعادة لوقت غير قليل، وهكذا بدَأ يَنسِج بينهما خيوطًا ملموسة غير محسوسة، تُبرَم المواعيد والأوقات التي يستطيعَا منها التلاقي بالعيون من دون حوارٍ، أو لقاء مادي.

الأيَّام تتلو بعضَها، والسِّنون، وتكبر الشتلةُ فتصبح شجرةً، وفي كلِّ يوم يحلم باليوم الذي يقترن بها فيه، وكلما استشعرتْ وأدركتْ بنموٍّ مكانتها بداخله، كلما اطمأنتْ بقُرْب النهاية المحتومة.

تخرَّج وعُيِّن معيدًا، وأورق حلمُه بالزواج منها، فلم يجد بُدًّا من التصريح لآله برغبته فيها، فارتأَوْا أنَّ خيرًا له أن يقترن بواحدة من قريته، تربَّتْ بين أيديهم، ونبتتْ تحت عيونهم، ولكنَّهم في نهاية الأمر أذعنوا لرغبته، وحضر والداه وأعمامُه إلى بيت فتاتِه لخطبتها، فقوبل بالإيجاب والترحيب، وتبارتِ الألسن في تقديم آياتِ التبارك والتهاني بهذا الزواج، وهدأ قلْبُ «بكر» الذي – أخيرًا – فاز بمَن اختار.

وفي يوم الزِّفاف حضر «بكر» وآلُه ما بين رِجال بـ«بدلات» عصرية، وآخرين بعمائم و«جلابيب»، وشوارب مفتولة، ونساء بملابس عصريَّة، وأخريات بـ«الملس».

عُلِّقت الزينات على بيْت العروس، وامتدتْ بطول الشارع، وأُقِيمت الولائم، وصُدِحت أصوات الأغاني والزغاريد، وفي نهاية اليوم زفتْهم العوالم إلى بيتهما، الذي علاَ بيتَ أسرتها.

رنا بكر لعروسَه المدثَّرة بثوب الزِّفاف، يُمنِّي نفسَه بهناءة البال، واستقرار الحال، وسعادة مقيمة، وبدأ اللحظاتِ الأولى من حياته بالحبِّ الأثير، وكلمات من الغزل الصريح، يبثُّها شوقه إليها منذ أن رآها، وتطلُّعه الدائم لذلك اليوم، وبادلتْه الحبَّ بحبٍّ أشد، فهمَّ «بكر» بإزالة المانع البيولوجي؛ ليغترفَا معًا مِن ينابيع السعادة والإقامة في جنانها.

لحظات، يُجدِّد المحاولةَ، فيتأكَّد له الانطباعُ الأوَّل الذي تحوَّل

إلى حقيقة كاملة، فقد سَبَقه آخرُ بإزالة هذا العائق، فلم يكن هو رُجلَها الأول، فشملتْه كُدرةٌ مقيمة، وتبدَّلت أحوالُه من النقيض إلى النقيض، فانكفأ أربدَ الوجه، مُكدَّر السريرة، ولَمَّا عاتبها لأنها أخفتْ عنه، قالت: إنَّها كانت تظنُّ أن حبَّه لها سيغفر لها خطيئتَها، فتصاعدت ألْسِنة اللَّهب من رأسه، ووجد جسدَه محاطًا بنار، فخرج إلى الشُّرفة الثانية بعدَ منتصف الليل، ورغب في أن يستيقظ أهالي المحروسة؛ ليعزُّوه في مُصابِه الأليم، فنادَى بأعلى صوته: يا أهالي المحروسة، الْحقوا بَكْرًا!!

حوار معه

في رواق ممتد أسير، لايبدو له آخر، استمر بغية الوصول إلى نهايته، مر وقت غير قليل، حتى انعطفت جانبا، أدخل من فوهة متاحة فأجدني في غابة من الكتب كبيرة الحجم ثقيلة الوزن، أوراقها تشبه الرقاع القديمة، كأنها مخطوطات عتيقة، بالغة القدم أو هي كذلك بالفعل، تفوح رائحة الكتب المخزونة وشدة العطانة تشي إلى عمق سحيق من الزمن، أرفع رأسي لأقصي ما أستطيع، لأطالع عناوين رئيسية كأنها أبواب لأروقة أخرى، لاتقل طولا عن هذا الرواق الممتد المبهم، الذي أفضى بي إلى هذه الغابة.

علم الإنسان، أسمع صوتا داخلي يقول:

علم الإنسان جغرافيا، ثم أكمل تاريخ الآداب والفنون، تاريخ العصور القديمة، تاريخ العصور الوسطى، تاريخ حديث، تاريخ الأديان، تاريخ اللغات وعلم الكلام، ثم عنوان كبير «سلة المهملات» يفضي إلى رواق كبير بحجم الأروقة السابقة.

أتقدم إليه غير هيابة، أقرأ أسماء كثيرة بعضها لراحلين عنا، وبعضها لأحياء يرزقون.

في جانب من هذا الرواق الفسيح مكتب ضخم، لايقل عتاقة عن محتويات المكان، عليه رقاع كثيرة، وريش مغموس في مداد مختلف

ألوانه، في حالة من التأهب الدائم للتدوين .

من خلفي يقطع صوته وصال اكتشافي، هادىء ولكنه مسموع في كل مكان، استدير فزعة لأجد أمامي رجلاً ضخماً، ليس له مثيل في الحجم فأنا بالنسبة إليه لست إلا عقلة أصبع، بينما كانت زميلات الدراسة تنعتنني بالساري أو عمود النور أو الفنار الذي به تهتدي السفن، وإذا ارتديت كعبا عاليا انهلن علي لوما وتقريعا وسخرية أحيانا فتقلن لي:

ماهي أحوال الطقس عندك ؟

أجيب وأنا أعي ما أقول: «لطيف»

فتقلن لي: طبعا كلما ارتفعنا عن سطح الأرض قلت درجة الحرارة تمعنا في إثارة حفيظتي.

أنت في أي طبقة ؟ التروبوسفير، أم الستراتوسفير، أم الميزوسفير، أم الراديو.

لاأبالي فأقول: أنا موجودة في كل الطبقات والأقزام يمتنعون.

اليوم أنا في حجم عقلة الإصبع ومن أمامي رجل مسن هرم، عمره يفوق كل الاحتمالات ولكنه ليس بالواهن، بل سامق مشدود القامة كالرمح ذو لحية كثيفة طويلة بيضاء، ووجه مغضن كثير الثنايا لو أفردت صفحة وجهه لوسعت الكرة الأرضية، يرتدي ملابس فضفاضة عتيقة، جهم الملامح وجهه بلا تعبير، لايستطيع أحدٌ كائنا من كان أن يستبين داخله، أسأله من أنت؟

ـ يجيب كأنه كمبيوتر «أنا التاريخ».
ـ وأنا إنسانة .
لايعلق ولايبدي أي مشاعر على سبيل الترحيب .
ـ لماذا أنت جهم خالٍ من المشاعر ؟
ـ أنا فعلاً بلا مشاعر بلا عاطفة .
ـ لماذا أنت هكذا بلا مشاعر ؟
ـ وجود العاطفة يعني أن أكتب وأنا ذو ميل وهوى فأحيد عن الحق وهو مالم يحدث من قبل.
ـ لكن هناك من يزيف التاريخ .
ـ يزيف ماينقله، لكنه لايستطيع أن يزيف ما تخطهُ ريشتي .
ـ لماذا لاتستخدم الوسائل الحديثة في التدوين؟
ـ أنا استخدم كل الوسائل لكن التدوين النهائي يكون باتباع الأصل
ـ هل تمتدح أحدا ؟
ـ مستحيل فأنا أوفي كل ذي حق حقه.
ـ لماذا أرى ألوانا شتى من المداد وريشتك واحدة؟
ـ هناك من أدون تاريخهم بماء الذهب وآخرون أدون تاريخهم بالقار
ـ كيف إذا ستدون تاريخ ثورة ٢٥ يناير؟
ـ تدوين التاريخ لايتوقف، وثورتكم تسجل لحظة بلحظة .
ـ تُرى تدوينها بالقار أم بماء الذهب ؟

ـ بهذا وذاك
ـ ستعري العملاء والخونة ؟
ـ نعم كلهم يحضرون أمامي عراة.
ـ هل تبتهج أو تبتئس أثناء التدوين ؟
ـ قلت أنا بلا مشاعر أنا قلم مخلوقٌ للتدوين فقط .
ـ هل أنت سيف مسلول؟
ـ نعم هو ذاك.
ـ أنا زوارة دائمة لأروقتك .
وأنا أروقتي مفتحة الأبواب.

فقاعات صابون

لحظات وئيدة، تمرُّ وكأنني أحمل ثقلها على كاهلي، أقف مذعنًا أمام الموت الذي اختطفها، تلك المتوجة على مملكة قلبي، يلقنها الشيخ حُجتها، لتجيب الملكين، بلسان طلق فصيح، ناكرا ونكيرَا، بينما أجمع شتاتى المبعثر، أشعر بها تربتً على كتفي، ثم تضمُّني بذراعيها، تقول في حنو بالغ: حبيب أمك، ياقلب أمك تواسيني لفقدها، الذي ألهب ضلوعي.

نعم الموت هو الحقيقة المؤكدة، التي ينبغي أن يوقنها جميع البشر، لكنَّ العيش في أتون التجربة، يكون حارقًا إلى حد التفحم، مازلت غير مصدق، أنني أضعها بيدىَّ هاتين في القبر، أسمح لهم أن يهيلوا عليها التراب، يغلقون عليها المقبرة إلى الأبد، يتداعى كياني منهارًا، تنهمر الدموع سيلًا متدافعًا، ، يناديني صوتها من عمق سحيق، في مطلع صبايا:

عايزة ابني يكون رجلًا.

أفيقُ، أستجمع رباطة جأشي، ها قد انتهت مراسم الدفن، وانصرف النَّاسُ، بقيت بجانب قبرها، أقرأ سوراً بعينها، من كتيِّب طبعتُهُ، صدقة على روحها، كل واحدة من أخواتي الأربع، أمسكت بنسخة منه، كنَّ في سباقٍ معي، نمطرها بِبَركةِ تلك الآيات،

والأدعية، مرت ساعتان أنهكنا التعب، هممنا بالإنصراف، فسمعت صوتًا يهزُّ كياني:

ماتت التي كنا نكرمك من أجلها، فاجتهد أنت بعملك.

ما عادت تحملني قدماى، خارت قواى مرة أخرى، تحاملت مستندًا على شقيقتي الوسطى، لأتَّخذَ مكانا بينهن، اعترتني نوبة من البكاء والنَّشيج، وكأنها شرارة البدء، فقد استثارت أخواتي، فعدن للبكاء .

الآن سنتركها وحيدة ونمضي دونها، لنبدأ دورة من اللهاث في الدنيا من جديد

يا للقدر، لكأنَّه كان يهيِّئَني، لأدفنها بيدىَّ، عندما عدت من سفري إلى الخارج كانت في فترة نقاهة، تتعاطى بعض الأدوية، استفسرت منها عما جرى لها، لقد كانت أعراضًا انتابتها، فذهبت إلى المبرة الخيرية، لتكشف بتذكرة مخفضةً، قيمتها خمسة جنيهات، مع قلقي الشديد، وأسئلتي التي لا تتوقف، أكدت لي أنها تعافت، وصحتها عادت بالعلاج، الذي وصفه لها الطبيب بالمبرة، لم أحس براحة، وأنا الآن قيمة وقامة، في البلد، وأمي تعالج في المبرة الخيربة، ليس إلا مستشفى استثماري، باهظ التكاليف جدا، فالسعر قرين الجودة، كنت أسير بجانبها مشدود الظهر، مرفوع الهامة، فلا أقل من أن يقال: يعالج أمَّه بأرقى وأغلى مستشفيات مصر، كان المبلغ المدفوع تحت الحساب كبيرًا جدًّا، لا بأس المهم أن

تشعر أن سنوات الشقاء، قد ولَّت، والآن هذا وقت السعد والنعيم، لا بد أن تشعر بالراحة والاهتمام، في نهاية عمرها، إنها أمي.

الخدمة بالمستشفى فندقية بامتياز، مبهرة مطمئنة، يغلب عليها بريق النظافة والاهتمام البالغ، والعلاج يسير بكل اهتمام، لم تكن تضايقني، بكلماتها وعبوس وجهها، حين تقول: والله يا بني لا داعي لكل هذا، فقد تعافيت والحمد لله . أقبل رأسها ويديها، اطمئنها: المهم سلامتك يا أمي .

كنت وحيدها، لثمانية أعوام، قبل أن تنجب أخواتي البنا ت الأربعة ،توأم، توفي والدي وعمر أكبرهن ثلاث سنوات.

يزداد تبرم أمي، لبقائها بالمستشفى، فأمازحها: لا تقلقي، صدقيني معك حق، ولكننا نريد أن نطمئن عليك فقط .

أيام قلائل وصارحني الطبيب، أنه لا بديل عن العملية، واستئصال الورم، لم يكن أمامي إلا التسليم، واغتنام هذه الفرصة الأخيرة، لم تكد تمضي ساعات، حتى ارتفعت حرارتها، ولم تعد من بعدها لمعدلها الطبيعي، ودخلت في غيبوبة، مؤشرٌ سيء، هكذا صارحني الطبيب، وبمرور الوقت، تدهورت حالتها، رغم بقائها في العناية المركزة، لاحظ الأطباء توتري الشديد، وقلقي الزائد، وإلحاحي عليهم، كيف يحدث هذا، قالوا:

إنه كبر السن، مع الضغط، والارتفاع القاتل للسكر في الدم .

كيف، وأمي لم تشتكِ يومًا من الضغط أو السكر، قال الطبيب لا

عليك، فنحن المصريين لا نفحص أنفسنا، إلا بعد فوات الأوان .

أكاد لا أصدقه، ربما يكون لكلامه بعض الصحة، فأمي بطبيعتها لا تذهب إلى طبيب، أو تتعاطى أدوية إلا للشديد القوي، كما تقول دائمًا.

غابت عن الوعي تمامًا، اللهم إلا فواقًا لدقائق معدودات، لتعود جسدًا نحيلًا، متصلًا بجسمها أكثر من جهاز، لا أبالي بما تستنزفه المستشفى كل يوم من أموال، المهم أن تتعافى.

ينتابني وإخوتي همٌّ ثقيل، أجمعن في لهفة شديدة، على ضرورة نقلها لمستشفى آخر، ثم هدأت ثائرتهن، وقد اقتنعن بأن هذه أرقى وأفضل المستشفيات في مصر .

لم يفارقنا الأمل في نجاتها من هذه الغيبوبة، شهرًا ونصفَ الشهر، حتى خرجنا بجثتها، شُخِّصَت الوفاة بهبوط حاد بالدورة الدموية، إنها الصاعقة التي سقطت فوق رؤوسنا جميعًا .

تحرك الموكب الحزين، إلى المقابر، من غرفتها التي ظلت قابعة فيها، منذ رحيل أبي، منكبَّةً على ماكينة الخياطة، تتحصل منها على القروش الزهيدة، التي بها ربتنا .

في نفس اليوم أعلنت وفاة السندريلا، بقية موائد اللئام، صنيعة وإنتاج موافي غير الشريف، كان خالي رحمه الله، كلما رآه يصرخ: غيِّرُوا هذه القناة، لا أطيق النظر إليه.

صنعة اللاشريف (سعاد حسني)، تلك التي رافقتني في مطلع

شبابي بالوهم والتخيل، فتعوِّضني عن الرفيقة، كنت مدمنها كلها: شكلها، تقاسيمها وصوتها، وخفة روحها، وقفشاتها وحركاتها، وكل مايصدر منها، نعم مثلها كثيرات، ولكنها كانت الأثيرة، ليس لديَّ فحسب، وإنما لدى كثيرين، أحدهم قالت له زوجته بغيظ: إنَّ نصفها صناعي، قال: لو صنعوا مثلها دمية لاشتريتها بأعلى سعر.

وبينما النقاش محتدم حول وفاتها، وترددت الأسباب والحيثيات، التي تؤكد أنها قتلت ولم تنتحر، جاءني طبيب شاب، فصل لتوه من نفس المستشفى، التي كانت بها أمي، ليؤكد لي أنها ماتت نتيجة لخطأ الطبيب وحدد بأدلة وتقريرٍ طبيٍّ محايد، سلَّمهُ إليَّ، قلت سأقاضي هذه المستشفى، قال:

حقك والأدلة معك، ولكني لا أنصحك بذلك، سيحتاج الأمر إلى تشريح الجثة، ولن تستطيع مواجهة الحيتان، ملاك المستشفى فلديهم ما يستطيعون به شراء كل شيء، ثم لا داعي لنبش قبرها، وما يعقبه من تداعيات نفسية عليكم.

لماذا إذاً أعطيتني الأدلة؟

قال: لأريح ضميري.

جريت كالمجنون، اقتحمت بسيارتي بوابة المستشفى، وهرولت مقتحما مكتب المدير، أخذت أجره من رابطة عنقه وأنا أصيح: يا بهائم يا أولاد الكـ.. لا أذكر بعدها شيئًا، ألا أن اثنين من الثيران البشرية، بقامات لم أر مثلها في حياتي،

كل منهما ممسكٌ بساق وذراع، وأنا في يديهما كالهرِّ المذعور، ثم ألقياني خارج أسوار المستشفى، وبعد جهدٍ دفعا إلى بسيارتي . شعور بالقهر لم أمر به في حياتي!.

أمي كانت أقوى مني، ومن أخواتي، استطاعت اجتياز الصعاب بنا، وهي التي وصلت بتعليمها إلى الابتدائية، وبمعاش والدي الزهيد وماكينة خياطة، عملت عليها، ولم تأنف من إصلاح ورتق الملابس القديمة، وتأييف التنانير، وصنع الشراشف والمفارش.

عندما رسبت في الثانوية العامة، بكت أمامي كما لم تبك من قبل، وقالت بأسى: أنت كسرت ظهري، ما فائدة وجودي في الدنيا إن رسب ابني؟!

لم أحزن لرسوبي قدر حزني لألمها وحزنها، الذي تسببت فيه، وشعرت أمامها بالخيبة والضعة، أمي التي لا تستريح، من ماكينة الخياطة، إلا لتستأنف أعمال البيت من تنظيف وطهي للطعام، من يومها لم يعد أمامي من بديل إلا التفوق والنجاح.

كان أول ما قلته لزوجتي بعد العقد مباشرة:

قنطرة المرور لقلبي هي أمي، وهي على حق دائما طلباتها أوامر.

نظرت إلي متجهمة، كانت تتوقع أن أسمعها كلمات الشوق والحب، وأبدي سعادتي باقتراني بها، بينما كنت جادا في إشارتي إلى أمي، وهي التي كانت مهتمة حد التفاني في إسعادنا.

مازال النقاش محتدما حول وفاة السندريلا، كنت في مطلع صبايا

أحرص على رؤية أفلامها، حتى بلغتُ مرحلة التحولات النفسية والجسدية، وصرت يصيبني مايصيب الرجال، فأصبح كالمحموم، الذي لا يبرد داخله، حتى أختلي بنفسي لأعتصر مابين فخذيَّ، وأتخفف من بعض أحمالي.

ظلت تمثل لي رمز الأنوثة والجمال، حتى بلغتُ الأربعين، وتغيرت نظرتي لجملة الحياة وتفاصيلها، واكتملت التجربة، وعرفت أن الجميلة إن كانت من الفضليات عانت في مواجهة الذئاب بمفردها، فهل في رأسي سيناريوهات افتراضية لحياة أمي جميلة الجميلات، التي اجتهدت لتواري الجمال، ولا بد أنها ارتفعت فوق كل الإغراءات، لتبقى لنا فقط ،يحجبها عن التفكير بنا سويعاتها القليلة، التي تقتنصها، لتريح مكونها الذي يئن ألماً، من كثرة الضغوط التي تطاردها، فأشفقت عليها واستشعرت جهادها الخفي، الذي لم ولن يذكره أحد.

أمسح دموعي التي بللت وجهي، عندما يهل في مخيلتي وجهها، عندما يكون طعام الغذاء سمك مقلي، لعلمها بشغفي به فتتركه قائلة:

ماعاد لي ثقل عليه.

حيلة منها لتتركه لي، وفي المرات القليلة التي يكون فيها على المائدة اللحم أو الدجاج، كانت تظل تلف وتدور حولنا حتى نأكل ونشبع، ثم تأكل ما يتبقى منا، ماتت أمي ففقدنا ما لا يعوض بكنوز الدنيا.

مازال جملة من الكتاب والفنانين يناقشون قضية مقتل السندريلا، كما أنني مشغول بالكيفية التي تمكنني من مقاضاة المستشفى، وإن كان البديل البلطجة، فإنني لست على استعداد للمواجهة، فجسمي كما كانت تصفه أمي، سفيف، قصير ونحيل، فماذا أفعل بهذا المكون الرقيق، فلو أني ذهبت إلى مدير المستشفى وقفزت في الهواء كالوطواط، ثم سقطت فوقه بكل ثقلي، ما أثرت فيه، زيادة على حراسه الشخصيين، الواحد منهم قد يحملني على ذراعه كطفل ولا يبالي.

الاستسلام يقتلني، كما يقتل محبي السندريلا، التي لاقت من يهتم بها وبقضيتها، دبج بعض الكتاب المقالات، وقرأت قصيدة لشاعر كتبها لها، ثم شيئا فشيئا فترالجميع، وانتهى النقاش. قاتلها يعلم كما يعلم قاتل أمي، أننا نسخن بسرعة ونبرد بسرعة.

ليس أمامي إلا اتباع نظام غذائي معين، به يزداد وزني على عكس الأغلبية ويرافق هذا المداومة على تمرينات رياضية لتنتفخ عضلاتي فإذا قفزت في الهواء وسقطت على مدير المستشفى يصبح لي ثقل يؤلمه.

فشل خيار اللجوء إلى القانون ففي بلادنا القانون تزيحه راقصة بمؤخرتها وآخرون رزقوا سعة من المال يزيحونه بأموالهم، كأنه كرة، يركلونها بأقدامهم، كيفما ووقتما شاءوا، ولكن حتى نفخ العضلات، ولى زمانه بعد أن غلب بياض شعري على سواده، لكل شيء وقته المناسب.

في غمرة استغراقي في داخلي المهزوم، أطالع من الشرفة، طفلة في السادسة من عمرها تمسك بلعبة فقاعات الصابون، تخرجها متكتلة، ويكفي أن تنفخ فيها بفمها الرقيق لتتفرق في فضائها المحدود حتى تتلاشى سريعا دون مجهود يذكر، تسعد هي بهزيمة فقاعات الصابون، بينما أشقى أنا ومحبوا السندريلا بهزيمتنا.

كف ذهب

أمام المِرآة تقف بنت العشرين تُمعن النظر في شبْكتها؛ "كفٌّ مِن الذهبِ»: سوار موصولة بخواتم بعدد أصابعها، يَبرق فوق كفٍّ أبيض بضٍّ يَشي بعُمرها الغض النَّضِر، كأنها يدُ غانية منعَّمة، مُترَفة بينما هي في الشقاء وُلدت!

أمُّها تَفترش الأرض بخضرواتها، ذات وجه مُغضن ممهور بشمس بلادنا الفتيَّة، وصبرِها على مرارة الأيام؛ فهي الأرملة التي تُنفق على بناتها الأربع، جاهدَت حتى تربَّين وتزوَّجَ ثلاثتُها الكبار، وورثْنَ منها الكدَّ وشظَف العيش، بينما صُغراهنَّ شفَعَ لها جمالها الفَتَّان، الذي أدركَت وأمُّها كنهَه مُبكِّرًا فنشأت مُتمرِّدةً، مُدلَّلة، وكثيرًا ما ردَّدت أمُّها: «لن أزوجها إلا مَن سيُقدِّرها»، إنها (القشدة الصابحة)!

فتمدَّد داخلها إفك التميُّز المضلِّل، فباتت تفاضل بين خطَّابها، تَثور لأتفه الأسباب، حتى جاءها مَن تتمنَّى، ذلك المهاجر هجرةً غير شرعية إلى إيطاليا، فلبَّى لها ما طلبَت هي وأمها، فكانت تَرتدي كفَّ الذهب وتسير كعادتها مُستمتِعةً بأنوثتها الفواحة، داخل ثيابها المُكتنزة، مبرزةِ القسمات، مُتقَنة الصُّنع؛ فما بين صدر ناهد، يَليه خصر كاد يَختفي، يليه رِدفاها المتكوِّران، فساقان

مقسمة داخل بنطال صُنع ليُظهر أكثر مما يَستر، فيُصاب الناظر إليها بجحوظ العينين، وانفِراج الشفتين، وتصلُّب الوجه، والتوقف عن الحركة حتى تمرَّ، والصغيرة خبرَت هذه المشاهِدَ، فأصبحت تبحث في ملبسها عما يَجعلها تَحتفظ دومًا بهذه الوجوه أينما ذهبَت.

وما بين رغبة الأم في إخفاء كفِّ الذهب مِن الأعين المستديرة، ورغبة الصغيرة في إغاظة مَن يكيدون لها – برَعَت الصغيرة في إظهار مهارتها بنَظْم فنون كيد النساء «لمُجايلاتها».

وإمعانًا في الأخذ النَّهم على الدوام؛ طرقَت بابَهم ظُهرًا سيدةٌ في نهاية العِقد الرابع، تسأل عمَّا إن كان هُنا مَن تستعدُّ للزواج أم لا، فأجابتها الصغيرة بأنها تستعدُّ للزواج عما قريب، فقالت لها: أنتِ مِن المحظوظات؛ فنحن جمعية خيرية نقوم بتجهيز الفتيات المُعسرات، فقالت في صلف: «خطيبي يعمل في إيطاليا، وسيقوم بتجهيزي جهازًا لم يأتِ لبنْتٍ في حيِّنا كلِّه»، فقالت لها: وأنتِ، ألن تَشتركي في التجهيز بأي شيء؟!

فقالت لها: بل سنَشتَرك بالطبع!

وهنا وجدَت المرأة ضالَتها، فقالت لها: إذًا فنحن من سيتكفَّل بالنفقات!

تنظر إليها الصغيرة وتتهلَّل أساريرُها، كأنها غير مصدِّقة، تعود المرأة التي قرأت الدهشة على وجهِ الصَّغيرة، فتقول: «زميلي يقف أمام البيت بالخارج، أعطِني الشبكةَ كي يَراها فقط، فيتأكَّد أنك

تَستعدِّين للزواج، ثم أُعيدها إليكِ حالاً»!

خلعَت الصغيرة كفَّ الذهب وأعطتها إياه، وهرولَت الأخرى غير مصدِّقة لما اغتنمَت.

وانتظرَت الصغيرة عودتها فلم تَعُد! وبعد نصف الساعة أصابها جزعٌ.. فرَكَت يدَيها، وزمَّت شفتَيها، وهروَلت خائفةً من مجهول يَنتظرها تتوجَّس منه، وتُبعد شبحَ وسوستِه داخلها، تنظر هنا وهناك باحثةً مُستقصيَة، مُتسائلة عن السيدة التي أخذَت منها كفَّ الذهب ولم تَهتد!

طوَتِ الأرض بأقدامها متفحِّصةً الوجوه التي تَمرُق هنا وهناك حتى تبلغ درجة اليأس، تَنقلب إلى أمها باكيةً مُنهارة، فتخبط صدرَها بيدها غير مصدِّقة، ولم تلبَث في التخبُّط كثيرًا، وإنما حسمت أمرها مُسرعة إلى الشرطة لعمل محضر.

تمرُّ الأيام بطيئة دون عودة كفِّ الذهب، فبلغ بها اليأس مبلغَه، فانكسرت نفسُها المُنتشية، وتوارت أنوثتها المتورِّمة، وتبلَّدت خطواتها الوثَّابة، وبقيَت يدُها دون كفِّ الذهب، وبقيت رتوقٌ داخلها دون الْتئام، لاكَتِ الألسنُ خطبَها؛ من الشامتات والمُشفقات، بينما توارت الحسناء من أعينهنَّ.

لون أسود

كل العالم من حولي قبيح وأراني الأقبح، أسير بخطى متمهلة، أتفحص الوجوه، أمضي إلى حتفي، لا يهمني مختارة أم مجبرة، الحكم لكم .

في محطة مترو الأنفاق، الوجوه من حولي، مشغولة عن بعضها البعض، لا أحد يرى أحد، لكل عالمه الخاص، كأنه في كون منفصل تماما عن الآخر، أكوان تتحرك في صلف وكبر وتيه.

أتفحصهم، كي لا آسف على ذلك الفعل الذي عزمت عليه، كنت أمد يدي لهم، طالبة منهم العون ولكنهم لم يعروني اهتمامً، ربما لم يروني، أحنت ظهورهم كثرة الملمات .

شهادتي الجامعية لا قيمة لها، دون الحصول على دورات تدريبية تخصصية، تكلفتها فوق إمكاناتي المادية، فكنت مدفوعة لأبواب أصحاب العمل، أسير في شارع طويل، وقد بلل المطر الغزير ثيابي، هدَّني البرد، تجمدت أطرافي، فامتزج جوعي العاطفي مع برودة جسدي فأصبحت عودًا صلدًا جافًا، وغدوت كلوح خشبي، أجاهد يأسا انتابني ليقترن أسودي بعتمة السماء، التي عدمت ألوان الشفق، ولم أعد أرى غير سوادها، عدت أدراجي إلى البيت، نعاني مخمصة، قد يخف أوارها أحيانًا، وقد يزيد ولكنه لا يزول، رائحة

أطعمة الجيران تزكم أنوفنا، نمضغ لعابنا، فنتحاشى النظر في عيون بعضنا، كما نتحاشى الشكوى.

يتكوم (أبي) في جانبٍ من سرير متهالك، وقد افترسه المرض، حتى بلغ عظامه فتقوس علَى نفسه، تقلصت أحلامنا حتى باتت حياتنا أوقاتا ثقيلة، نمضيها حتى نموت، نقطعها في انتظار المنقذ ... الموت! فنلقى الله فيكافئنا بالجنة، ويعوضنا عن أعمارنا التي أفنيناها في لعق جُدر الحرمان .

كل صباح انتظر أن يضعنا ملك الموت على قائمته، ولكن يبدو أن الأمر مؤجل.

لم يتركني المؤمنون الفرقاء، الذين يرى كل واحد منهم نفسه على حق، ولا يفصله عن الجنة سوى الموت، بدءا من الموحدين مرورًا بالمؤمنين بالمسيح المخلص، وصولا لأولئك الواثقين بأنه لا إله لهذا الكون، كل منهم يتحين الفرصة، إذا بدا خطأ ما لأحدهم، فيقوم بإسدال ثوب الفضيلة، الذي يتدثر به ليواري سوءاته عن الأعين، ويجتهد ليثبت أن دعواه هي الحق المبين، ويسوق لي الأدلة تلو الأدلة، على صدق دعواه، يهلون على مختلف الشاشات الفضية، بوجوه نضرة تلوح عليها آثار النعمة، ويطلُّ من عيونهم الشبع، يدعون خماص البطون إلى تحمل الشقاء، وشظف العيش في الحياة الدنيا، ليكتب من الصابرين الذين سيتنعمون برضا الله .

على الأسفلت الحارق، كلبٌ يلهث من شدة العطش، يخرج

لسانه الجاف متلمسا الري بطريقة ما، فيقوم بلعق مختلف الأسطح المحيطة به فيروي ظمأه بجفاف الأسطح، التي يتلمسها، والأكوان الماضية من حوله لا تراه، ولا تعبأ به، قبل أن أهبط إلى محطة المترو، ملأت زجاجة فارغة من مبردة بجانب المحطة، شربت وغسلت وجهي، أطفئ فيه لهيب الشمس الحارقة، نظرت بعطف إلى الكلب المسكين، وكأنما قلت له: أتشرب ؟، فأمأ لي برأسه، سقيته حتى ارتوى، تمتمت ليكن هذا آخر عمل لي في الحياة الدنيا، خطواتي بطيئة، يتسلل إلى سمعي، صوت الشيخ، المترف ذي الكرش المتدلي على فخذيه، من قناة فضائية يرد على رجل سوري يتساءل: "هل يجوز لي أن أقتل زوجتي وبناتي لأن الشيعة، وشبيحة بشار يجوبون المدينة الآن، ويقتحمون البيوت ويغتصبون النساء "، فلم يجز له قتل نسائه، بعض السوريات اتصلن بالشيخ لتحصلن على فتوى بإجازة إلقاء أنفسهن من الشرفات هروبا من جحيم الاغتصاب والقتل، فلم يجز لهن الانتحار، وأمر الجميع بالصبر والاحتساب.

وأنا يا فضيلة الشيخ: كل الألوان اختفت من حياتي، ولم يعد ألا اللون الأسود، ولا أريد منك فتوى للانتحار فقد عزمت على الذهاب إلى الله بطريقتي الخاصة، لأشكو إليه، الأكوان من حولي تتدافع وهم يرتطمون بي غير عابئين، ليلحقوا بالمترو، مادين أبصارهم، يراقبون إندفاعه كالصاروخ، حتى إذا توقف سارعوا بالركوب، يحشرون أجسادهم حتى يعثر كل منهم على موضع قدم، وأنا مثلهم

أرقب إندفاعه، وقبل أن يتوقف وتفتح أبوابه، ألقيت بنفسي تحت عجلاته وهو في قمة سرعته.

رجل كل العصور

(صاحبنا) هذا كان عضواً في تنظيم الطليعة الإشتراكية، في بداية ستينيات القرن الماضي يحضر الاجتماعات مدفوعا بحداثة سنه، يظهر الحماس، ويبشر بالآمال العراض التي يبثها المحاضرون، فضلا عن خطب الزعيم الخالد، فهو الذي سيحقق حلم الوطن الأكبر ـالدولة العربية الموحدةـ وهو الذي سيلقي بإسرائيل في البحر، وهو الذي يخاطب ملك الأردن بالملك سوسو ويهدده علنا:

«إن لم تحضر الإجتماع سأرسل لك من يأتي بك» .

ينتفخ داخله ويتمدد، خاصة عندما يلوح له كالصقر، بعيون حادة وقامة سامقة، ونبرة خطابية عسكرية، جعلت منه مرضا، أصاب الكثيريين ممن يطمحون للقيام بنفس الدور، بيد أنهم سرعان ما يظهرون كمهرجي السيرك بجانبه، وحتى بعد وفاته.

... لاينسى كلمات المحاضريين بأننا جميعا لابد أن نكون تروسا في آلة التقدم، وأن نخلع على أنفسنا لقب الرواد في محاريب العلم والتقدم، وغالى بعضهم دون أن يعترض عليه أحدٌ فقال: لكل زمان أنبياءهُ وأديانه، ودين هذا الزمان هو العلم، فالعلم وحده هو الذي سيقود قاطرة التقدم وليس الصلاة في المساجد، فهذا ليس إلا فعل الدروايش ولاينبغي لنا أن نكون كذلك، وبذلك تأصل داخله أن

الصلاة مضيعة للوقت، والصوم هلاك للنفوس ومبعث على القعود عن العمل، والخوف من الحساب واليوم الآخر خرافة ابتدعها رجال الدين للسيطرة غير المأمونة على العقول، ولايستطيع أحدهم القطع والجزم بحقيقة أن هناك يومٌ آخر.

... حلت نكسة ١٩٦٧ فوق الرؤوس، فنزعت ورقة التوت عن كل الرموز، وتركتهم عراة ـكان صرحا من خيال فهوى ـ رفعت الأقلام وجفت الصحف فلا وطن أكبر أقيم، ولا قومية عربية تحققت، وها هى إسرائيل لم تلق في البحر ولا بقى الزعيم ـكما زعمواـ خالدا.

... في بداية سبعينيات القرن الماضي عُيِّنَ (صاحبنا) بديوان عام المحافظة، واستبدلت صورة الرئيس المؤمن بزبيبته الشهيرة بصورة الزعيم الخالد، وحل معه صحفيٌّ كبيرٌ محل الصحفيِّ الكبير الشهير بـ «بصراحة» كلاهما منوط بهما ملىء الرؤوس بمناقب الفرعون الذي لولاهُ لحلت الكوارث بالبلاد.

تغنى (صاحبنا) بمناقب الرئيس المؤمن الذي حل نصر أكتوبر على يديه، ونسي كعادته الجنود من الصعايدة والفلاحين الذين تحملوا عبء العبور وحملوا راية النصر.

عضو تنظيم الطليعة الاشتراكي أصبح عضوا بالحزب الوطني الديمقراطي، وتشبع فكره بلوازم دفع وقبول الإكرامية والدخان وما شابه ذلك، وأصبح مجرد ذكر اسمه بطاقة توصية يمكن أن يعين بها شخصٌ ما في وظيفة بعينها، أو تُفتح به الأبواب المنغلقة.

في انتخابات الحزب يصبح نشطا يقظا حتى تسوَّدُ البطاقات لصالح الحزب دون غيره، لتصبح نسبة الانتخابات كما هو معلوم في بلدنا العزيز ٩٩,٩٪ وهو شبه اجماع لا يتحقق ولا للأنبياء.

يقوم الرئيس المؤمن بزيارة الكيان الغاصب ويوقع معاهدة السلام؛ وينشق الصف بين مؤيد ومعارض و(صاحبنا) يسير في ركاب الرئيس المؤمن لايحيد عنه ويطلق صيحات التأييد وينشرها حيثما وجد فكبير العائلة دائما على حق.

وكثيرا ماتتحفنا الأيام بجديدها، قتل الرئيس المؤمن وحل محله كنز إسرائيل الاستراتيجي واستبدل بالصحفيِّ الكبير صحفيا آخر كبيرا. وأشاع هذا الكنز أنه لن يبقى في سدة الحكم أكثر من دورة أو اثنتين حتى تستقر البلاد، ولكن الفترات كثرت وتمددت لتصل إلى ثلاثين عاما، وتقوقعت مصر وتقزمت وكبر صاحبنا ومازال يسود البطاقات لصلح الحزب الحاكم وبدأ يستعد لاستقبال الوريث... أليس ابن الوز عوام ؟!

وبثورة ٢٥ يناير تنقلب الموائد، وتتناثر أوراق اللعبة التي يجمعها ويعيد ترتيبها الإخوان المسلمون فيتبوأون المشهد فيقوم (صاحبنا) سريعا ليتحدث بالآية والحديث، مشيرا بتلك المسبحة التي لاتفارق يمناه المحلاة بخاتم كبير من الفضة بخنصره، وأصبحت رنة هاتفه المعلنة أو المسموعة عبارة عن أدعية لأحد شيوخ الخليج، عله يلحق بالركب فلا يغيب عن المشهد، بيد أنه وصمه

بالفلول ظلت تلاحقهُ فنحى رغما عنه. ولايفتأ يعلن عن هويته الجديدة، ويقسم أنها كانت مخبوءة خوفا من بطش السابقين، لولا أن الثورة أسقطت كل الأقنعة وأصبح الكذب لامحل له من الإعراب .

النُّصُبُ

في أجواء شهر يناير الشتوية، وسنان الزمهرير تخترق جسدي ،طوقت جسدي بذراعيَّ أستدفئ بهما، وقد أخذ قبطان الطائرةِ يرتفع بها تدريجيا عن الأرض، باحتراف مُشَوِّقٍ، وها هو النهار يطارد الليل، يجليه عن كوننا ليبسُط فسطاطه، على كونٍ بالجانب الآخر من الأرض.

ألصقت وجهى بزجاج النافذة المجاورة، ألمح من بعيد، كلبًا يلتهم في ترقب وفزع، أجساد أربعة قطط مولودة للتو، أو هكذا تبدو لي، بينما الأَم تقترب منه في جزعٍ، ثم تعود أدراجها، تقفز من بعيد هرولة، ثم تقترب وتبتعَد، ومَواؤها يقطع نياط القلوب، لتقف في النهاية كسيفة حزينةً، وقد رأت أجسادهم بين أنياب الكلب. . .

ارتفعت بنا الطائرة، تضرب في غياهب السحب، فلم أعد أرى بقية التفاصيل، وإن لم تغب الصورة عن عينيَّ وخاطري، تلك التفاصيل التي لم تعد تهم، فما هو المهم الذي من أجله تركت الأهم ؟

النُّصُبُ، منذ بدء الخليقة، منصوبٌ رواقها، لم ينقض بنيانه بعدُ، والطريق إليها معبدةٌ، دون معوقات تذكر، أو هكذا شاء من أقاموها، أن يجعلوا الطريق إليها سهلة ميسورة ،

وقانونها الأزلي لم يتغير، الذبائح لابد أن تكون من أنْفَسِ ما نملك

فهذا أول شروط قبول القرابين ،

والذي يتلقاها يجلس في صراطنا المستقيم، وبغرورٍ وعنجهية، يخرج إلينا لسانه، كبرًا واستهانة.

أبونا من قديم، قدم الجنة بمكوناتها

وتفاصيلها إلَيه، ليشقى وذريته، على بسيطة ديدنها الكَبَدُ والشَّقَاءُ، وتبعه أبناؤه الأشقياء، لا يألون جهدًا، في تقديم القرابين ، على مر العصور والأزمنة، مضحين بأَنْفَسِ ما يملكون، سعيًا وراء أوهام في خيالاتٍ مريضة

. الأمر لم يختلف كثيرًا ،

عما كان يفعله الإنسان الذي زاحم الحيوانات في سكنى الغابات، فطرق الذبح مختلفة، ولكن النُّصُبَ واحدة، ومتلقي القربان واحد.

لم يختلف كثيرا مشهد الأب الذي يذهب إلى النُّصُبِ، ليقدم ابنه ذبيحة، لإله صنعه بيديه، أو صنعه له آخرون، عن مشهد القطة الحزينة، التي تركت صغارها في ذِلَّةٍ واستكانة، ولا تلك المحصودة أرواحهم فرادى وجماعات، في كل بقعة على سطح هذا الكوكب، فالأوثان أقيمت مرة أخرى، ولكنها الآن مقامة في النفوس ،

وبحاجة إلى معول نبيٍّ للقضاء عليه.

والنار مازالت مشتعلة، ولكنها ليست بردًا ولا سلامًا على أجسادٍ

تُشوى، والغانيات ما زلن يرقصن فوق جمرها، في خفَّةٍ ورشاقةٍ، وتجتهدن في الابتذال، ظنًّا منهن أن هذه الكيانات التي يطالعنها لديها نفوسا مذكرة، وفي خبيئةِ هذه السراويل، أعضاءٌ تصبوا إليهن العيون الشبقة، .

ترقب حلول الربيع، ليزيح الزمهرير وقسوته ويأسرنا بألوانه الصاخبة، صخب الحياة البريئة من صخب البارود

، . صناع الآلهة لم

يتوقفوا بعد، فتلك بضاعتهم الرائجة، التي من أجلها تسن النِّصال، ويتصدر الموت فوهات المدافع ،

تلك المصوبة للصدورِ العارية، فمن يعيرها دروع الخالدين، واقتحام الفاتحين، وترفِّع الزاهدين ؟!

القطة كانت تقفز وتثب، لتستردَّ صغارها من العدم، فمن تراه منا يرقى مرقاها ؟

عيد زواج

اليوم الأول لي في المدرسة، أنطلق إليها عدوا ـكأنني أريد أن يعرف الناسُ أنني حديثة السن حديثة التخرج من كلية التربية الفنية، كنت أسير في خفة الفراشات،

مدفوعة بحماسٍ داخلي، فأنا أعملُ في المجال الذي أحب: أحب الفنون وأحب التدريس.

المدرسة التي ألحقت للعمل بها، هي مدرستي الثانوية التي تخرجت منها ومازال أساتذتي يعملون بها.

تطالعني معلمة في الأربعينات من عمرها مبتسمة تقول:

– زميلة جديدة ؟

ـ نعم .

ـ ما اسمك؟

ـ إنجي .

ـ اسمك جميل مثلك لكن أين علي؟

أشاركها الدعابة:

– لم أعثر عليه بعد، إن شاء الله يكون عندنا.

لدي حدس وضروة بأن أسعى لإثبات وجودي، ولم لا وأنا كفء وفنانة قبل أن أكون معلمة، فالأولى هي الدعامة القوية للثانية.

صنعت أشياء مدهشة من القارورات، وعلب العصير الفارغة، فضلا عن لوحات عرَّجت فيها إلى أحقاب مصر الثلاثة: الفرعونية والمسيحية والإسلامية، استخدمت فيها زجاجا ملونا مكسَّرا، وحبات العدس والأرز استخدمها بديلا عن الألوان وقمتُ بالطباعة علي القماش، والحفر على الخشب، ولم يمض عام حتى أحالت حجرة التربية الفنية إلى معرض دائم، فضلا عن اشتراكي في المعرض السنوي للإدارة التعليمية، لتفوز مدرستنا بالمركز الأول، فنلت إعجاب رؤسائي، وازداد حماسي وإقبالي على العمل.

... رشقتني عيناه بإعجاب النظرة الأولى، بينما نمر باتجاهين متقاطعين، ظللتُ متجهة إلى حجرتي، ولم أبال به، ظننته حضر لشيء ما ثم يعود أدراجهُ، بيد أنه بدا كمن يرتب للبقاء طويلا.

... فهذا الفصل المقابل لحجرتي انقلب إلى وحدة تدريب، تحتوي على مناضد جديدة تعلوها حواسب جديدة أيضا، يتعاون مع زميلتيه في التشغيل والقيام بالمهام المنوطة بهم.

لم يكتف بالنظرة الأولى، وإنما أعقبها بالكثير، ففتح مغاليقي، ونثر الحبُّ بذوره في أرضنا الخصبة المشتركة، فكان يختلق الأسباب ليجلس معي ويحادثني وكنت أتعلقُ بأسبابه الواهية للقائه.

تدخل علينا زميلتي التي سألتني عن "علي" في اللقاء الأول فتقول: جئت لرؤية الإبداع ما الجديد لديك ؟

رحبت بها وداخلي يضطرب، يبدو أنها استشعرت ما بيننا،

فقد رمقتنا بنظرة خاطفة، ولم تلبث إلا يسيرا، ثم قالت:

– نسيت أنه يتوجب عليَّ الاتصال بالإدارة لإنهاء بعض المهام، وخرجت قبل أن تكمل الطواف داخل الحجرة متأملة معجبة بما أصنع، كانت شديدة الحساسية، شديدة الذكاء، بينما بدأ اللمز والغمز من زميلاتنا بالمدرسة لينالوا مني، حتى قمت بالتلميح الخفي لها بذلك فتقول لي باسمة:

– ولا يهمك من عواجيز الفرح.

ثم يكتسي وجهها في الحال بمسحة من الجد ناصحة إياى:

– خذي حذرك فشهوة الغيبة والنميمة لدى الناس مشتعلة دائما.

بدأنا خطوات الارتباط المعلن، فحملنا بطاقات الدعوة لحفل الخطوبة إلى الزملاء والزميلات بالمدرسة، وبدأنا بها فتهلل وجهها مباركة مرحبة، ومتمنية لنا مزيدا من الحب والسعادة، وداعبتني قائلة:

وجدت "عليا" عندنا ؟ قلت بل هو "طارق"

خرجنا من عنق الزجاجة ونجحنا في تجهيز عشنا الذهبي، وأوردنا نفسينا موارد الحب والسعادة والاستقرار، فهان علينا بعد بيتنا عن المدرسة، وبيتا أسرتينا وصعوبة المواصلات، ودفع بعض الأقساط.

ناء جسدي بثمرة حبنا وثقلت خطواتي، وأنا أترقبُ قدوم ابني، حتى أهلَّ في حياتنا بوجهه الصبوح، وأصبح طارق يعمل بعد

الظهيرة فلم يعد متفرغا لي مثلما كان، انتهزت فرصة عيد زواجنا الثاني وحاولت أن أعمل بعثا وتجديدا لحبنا الذي علاه بعضُ الغبار، فنثرت العطور على الوسائد والشراشف، وألقيت بالقلوب الحمراء في مختلف أرجاء الحجرة، وأوقدت الشموع ابتهاجا بليلة حب جديدة. وارتديت أحب ثيابي إليه، واعتنيتُ بشعري، فصرتُ كالعروس، وضعتُ على وجهي بعض المساحيق لإبراز جمالي، وخرجت إليه بينما هو يشاهد مبارة للمنتخب، جلست بجانبه لا يبالي يخبط فخذيه بكفيه، قائلا:

اعمل حاجة يا أبو تريكة، أحمل صغيري ذي الستة أشهر أسير أمامه اعترض عيناه المصوبة تجاه الشاشة، عله ينتبه إلي، فيصرخ فيَّ حتى لا تفوته لقطة، ويقول: اتحرك يا متعب، خلك نائما يا: "حضري" أهدهد ابني وأسير، اعترض عيناه مرة أخرى، فيصرخ: لا أريد أن أراك هنا .

الفريق الآخر أحرز هدفا، انهزم المنتخبُ، يحتبس أنفاسه ويحتقن وجهه، ويقومُ منتفضا هذه المرة صارخا في هستريا:

– استريحتي.. استريحتي: أنت طالق يا انجي .

لا أكادُ أصدق ما أسمع.. أهرع إلى حجرتي، أغير ملابسي أجمع شعري المسدل وأمسح وجهي، في انكسارٍ أحمل حقيبتي وطفلي، أتوجه خارجة من باب الشقة تشاركني دموعي.

... بينما ظل هو يتابع المعلقين على المبارة بعض الوقت، حتى

استفاق إلى عدم وجودي، يرتدي بنطاله في عجلةٍ وحذاءً رياضيا دون جوارب، ويكمل تسوية ملابسه وهو يهبط على السلم، يقف في الشارع ينظر يمينه ويساره، ربما عثر عليها، فلما تيقن من عدم رؤيتها، استقلَّ الحافلة ليلحق بها .

ورقة سيلوفان

اليوم أسيرُ كالفراشة الزاهية الألوان، أقطفُ من بساتين البهجة، أزهى ورودها، تخفَّفْتُ من سنوات عمري السبع والعشرين، منها عشر سنوات، مكبَّلَة بهذا القيد، الذي يربطني من أعلى نقطة في رأسي، إلى أطراف أصابع قدمي، مفردات جديدة أنثرها على جسدي، الذي ظَلَّ محتجباً عن العيون، لم تعد لكلمات معلمتنا، ذلك الأثر الذي كان يملأ عليَّ خواطري: "الحجاب يحجب الجسد والشعر، عن الطبيعة القاسية، التي تلقي بظلالها علينا، فتظلين وضيئة، مهما تقدم بك العمر" سرت في الشارع في طريقي إلى عملي، نعم أشعر كأنني أسير عارية، تعتريني لبرهة، رهبة من بعض العيون المتلصصة من حولي، شيئاً فشيئاً تخلصت من هذا الشعور، بجرأة لم أكن أتصورها من قبل . لم أستطع أن أتخلص، من رنين هذه الكلمات في أذني: " يابنات الحجاب أمر إلهي لابد أن تمتثلن وتذعنَّ لأمر الله، فالحياة قصيرة، ومتاعها زائل " . فلم أبالي، الآن وملابسي مكتنزة، أستمتع بأنوثتي، – تلك التي كانت مقموعة –، بقوامي المشوق المنسق، بنظرات العيون التي تكاد تلتهمُني . كنتِ مطفأةً، قالها المدير، وهو يتطلع في كل جزء من جسدي، وفي جرأةٍ لم أعهدها منه من قبل: "الحجاب يطفيء المرأة ويقتل الإبداع" . والآن أمضي

متألقة، متأنِّقة، تتحرش بى العيون تارة، وتلذعني الألسن تارة أخرى، وكأني الأنثى الوحيدة، في هذا العالم، سيارتي الخاصة، كانت سياجاً، منع الأيدي من أن تنال من جسدي، رأيت الجوع النَّهِمَ، في المتلصصين على نهدىَّ، الرجراجين، الذين يشبهان، قطعة من الجلي، على مائدة في قطار سريع، والأرداف البارزة، المحشورة بقسوة داخل بنطالٍ ضيق، أذعنَ لتعرجات قوامي، كأنما هو جلدي بلون آخر، وخصري الذي نحتته الملابس الضيقة، وشعري المنساب، يداعب وجهي، من كل اتجاه، أبتسم في سخرية، وأنا أتذكر: " يا بنات: ما من رجل ينظر إلى امرأة بشهوة، إلا وتخيلها عارية تماماً، وعلى قدر مايتبدى منها، يستطيع أن يتخيل ما حجب عنه، وتحملين وزره ووزر نفسك" تتحول الابتسامة إلى ضحكةٍ هازئة: ولو !، لن تبتزني نفوسهم المريضة، ولا نظرات كانت تقتلني فيما سبق، ناضجة أنا بما يكفي، مزهوة بجمالي، لا أخجل منه، مستمتعة بأنوثةٍ، حُرمت منها لأكثر من ثلث عمري .

كَوْني فنانة تشكيلية، جعلني قريبة من مجتمع المثقفين والفنانين، أحضر ندواتهم، استمع إليهم، أحاورهم دون وسيط، كتاب مستنيرون، وكاتبات جئن بحجابهن، من الأقاليم، فخالطن مجتمع المثقفين، وأدركن أن الحياة ليست بهذه النظرة الضيقة، فالألوان كثيرة، وقابلة للتعايش، ولا يوجد بها حدود هندسية جامدة، تخففن شيئا فشيئا مما اعتدن عليه، وخلعن الحجاب

وتحدثن وكتبن عن "الفكر الوهابي السلفي، الذي نشر الظلام والجهل في مصر" ومواجهة المجتمع الذكوري، وعلمن أن جواز المرور، يتمثل في: كسر التابوهات، كالكتابة في الجنس، والدفاع عن الأقليات، واتهام الإسلام من طرف خفي، أو معلن، بأنه سبب كل مانعانيه، فانطلقن وتحولن إلى كاتبات مستنيرات، تفتح لهن كل الأبواب.

إنها نبوءة رئيس لجنة التحكيم الأوروبي، في مسابقة(ملكة الجمال) والتي اشتركت فيها لأول، مرة فتاة من تركيا، بعد سقوط الخلافة العثمانية

" أوروبا كلها تحتفل اليوم بانتصار النصرانية، لقد انتهى الإسلام، الذي ظل يسيطر على العالم، منذ ١٤٠٠عام، إن (كريمان خالص)، ملكة جمال تركيا، تمثل أمامنا المرأة المسلمة، ها هي حفيدة المرأة المسلمة المحافظة، تخرج أمامنا بالمايوه، ولابد لنا من الاعتراف، أن هذه الفتاة هي تاج انتصارنا." . ذات يوم من أيام التاريخ، انزعج السلطان العثماني (سليمان القانوني)، من فن الرقص، الذي ظهر في فرنسا، عندما جاورت الدولة العثمانية، حدود فرنسا، فتدخل لإيقافه خشية، أن يسري في بلاده، ها هي حفيدة السلطان المسلم تقف بيننا ولا ترتدي غير المايوه وتطلب منا أن نُعجب بها"

قلت لنفسي: وليكن، هذا تضخيم لحدث لا يستحق هذا التوصيف

والتضخيم.

أتذكر كيف كان يقالُ لي: كيف تكونين فنانة، وترتدين هذا الزي ؟، أنت تناقضين نفسك، الفن والدين نقيضان، المرأة هوس يصيب البعض، ألم تكن جدتك غير محجبة؟ وعاشت حياتها بصورة طبيعية، ألا ترين حفلات أم كلثوم ؟، وهى تمتليء بهوانم، برزن من علٍ لهذا العالم، لم يكن قد ظهر مهوسون بعد، فهل هؤلاء جميعهم سيلقون في الجحيم؟، أنت تدفنين نفسك، وبهذا المظهر، ستبقين في زجاجة مغلقة، الفن تمرد على كل شيء، دون التمرد لن تصبحي فنانة.

بادرني أحدهم، بعد ما خلعت الحجاب: "وحجبتِ عنا كل هذا الجمال، أنا متأكد أن إبداعك سيكون مختلفاً ،الآن تحررت، والفن لا يولد إلا من رحم الحرية"

وهذا يداعبني: " أنت نفسك أجمل بورتيريه رأيته، تمتعي بجمالك وأمتعينا، أنت لست عورة، ولا قطعة لحم بحاجة إلى غطاء، انفضي عن رأسك كل الوساخات، التي ترسبت داخلك "، تذكرينني بمقولة (محمد عبده): "

إن كان لي حظًا من العلم الصحيح، فإنني لم أحصله إلا بعد أن مكثت عشر سنين، أكنس من دماغي ماعلق فيه من وساخة الأزهر، وهو الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة"

أما هذا فراح يدغدغ مشاعري العطشى:

"مقاييس جسمك مثالية، قصيدة شعر تسير على الأرض، وأنا من سيكتبها " .

والكاتبة التي داست حجابها في مشهد، منذ أعوام، أقبلت متهللة:

"أخيرا ألف مبروك، يدي بيدك نعمل ثورة على فتاوى التخلف، ونقود مسيرة لكي تدوس كل امرأة هذا الحجاب، الذي ألقاه عليها شيوخ الصحراء، فحجب عقلها، وروحها وشبابها، ونلفظ العنصرية، وما ترسخ في عقول المسلمين، من أنهم فقط من سيدخلون الجنة، أمامنا طريق طويل " . ....

بينما بكت أختي وحزنت، وانهالت علي بالنصح، تذكرني بما تعلمته، ومحفوظاتي من آيات قرآنية، وأحاديث نبوية، فقلت لها بمنطق المهزوم:

" الحجاب ليس دليل العفة أو الكمال، ثم إنَّني حريصة على أداء كل الفروض كاملة.

هزت رأسها في أسى، وعلى محيَّاها ابتسامة ساخرة: " لقد هُزِمْتِ سريعاً، وأنت بهذا المظهر الآن أيقونة الطهر والعفاف ؟! " . بكيت، لم أكن أدر ماذا أقول: "الحجاب كان معوقاً، لي كثيراً، وأنا أريد أن أكون" .

أعود لأنفض عن نفسي اتهاماتها: " ألا ترين المحجبات وحجابهنَّ، لقد مسَخْنَهُ، فكنَّ لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء " . .....

أصبحت أكثر تحرراً، أنصت بلا حرج، لمن يتحدث عن نوع الخمر الذي يفضله، أو من يتحدث عن مزاجه الشخصي، المتغير في النساء، ويلمزني من طرف خفي برغبته "جس نبض"، فأتجاهله، وكأني لم أسمع.

أما زميلي الفنان، الذي بارك لي هو الآخر، فقد راح يرسم شخصاً، صبغه بملامح من الجمال الفائق، بحجم كبير، ومن خلفه أناسٌ كثيرون، أجسامهم متناهية الصغر . – ماذا تعني بهذه الصورة؟

– إنه الشيطان محررنا الأول.

– لا أكاد أصدق، قلت بدهشة: "محررنا" ؟! . أول مرة أرى الشيطان بهذا الجمال.

– نعم، الأكلاشيه الساذج، المحفوظ عنه أنه شخص دميم، ونموذج منفر، لكل أنواع الشرور في هذا الكون. لا ياعزيزتي: " الشيطان هو أجمل المخلوقات وأذكاها وظلمه الله"

أستبشع مايقول، فأصاب بالوجوم.

الشيطان هو أول متمرد على الخضوع، هو أول الداعين إلى الديمقراطية والحوار، هو أول الداعين إلى التفكير الحر، تماماً مثلما تمردت أنت مؤخراً . –

طأطأت رأسي أحسست ببوادر المهانة .

– لقد سبق كل المعارف، والخبرات الإنسانية المتراكمة، هو

من غرس البذرة الأولى، لنقض التجبر والتسلط، حتى لو كلفه ذلك الطرد من جنة، لا جود لها إلا في رؤوسكم.

– حديثه الفج، وقف عقلي عن التفكير: إذاً أنت تحب الشيطان؟

– ولماذا أكرهه؟

– ألا تؤمنُ بالله؟

– أنا مؤمن بوجود إله، لكن هذا الإله لم يعد قادراً على إدارة هذا الكون.

– أحاول ابتلاع ريقي بعد أن أصاب حلقي الجفاف.

أحس بما اعتراني، ووجدها فرصته ليجهز عليَّ تماماً:

– رهاني عليك في الفترة القادمة، أن تتحرري من كل التعاليم الدينية، الموروثة ،لأنك مارست "جريمة التفكير" التي أوعز لك بها معلمنا الأول.

استدرت دون استئذان وأنا أتمتم في نفسي بل أنا من تعاني عقدة الشعور بالذنب.

فجـــــــــــة

كان يجري بكل ما أوتي من قوة تفوق أربعينية عمره، لديه إصرار شاب عشرينيا على اللحاق بهم، يلاحقه صوت أنفاسه، رغم علمه بأنهم قد يضرونه ولكن نقاؤه يأبى عليه غير على ماعزم عليه

ذوي سلطة ونفوذ، مثله لايمكنه الإيقاع بهم، ومثلهم يتصدرون جل المؤسسات، تلك المؤسسة الكبيرة التي يعمل بها يقف منفردا في وجه أخطبوط متعدد الأذرع والمخالب، في كل يوم يحضر ليوقع في دفتر الحضور، عندما يدير ظهره ليخرج من المكتب يفتش جيوبه خشية أن يضعون له شيئا ما، يلفقون له اتهاما ما ليتخلصوا منه

مازال يجري كأنه يسابق الريح يهل في أفقه صوت زوجته المتهدج ترجوه أن يمشي بجانب الحائط حرصا على ابنيهما التي كثيرا ما كانت تسهر ليلا خوفا من أن يبطشوا بهما بطريقة ما ولا تطمئن إلى إرسالهما إلى المدرسة بباص المدرسة بل ترافقهم ذهابا وإيابا، تبكي راجية منه الكف عن التصدي لهم، سمعهم ذات مرة، نثار حديث مفاده يفكرون في طريقة ما لاستبعاده فلا يرى ما يفعلون "ويرتاحوا من وجع الدماغ"

كانوا يرنون إليه بريبة ويبادلهم هو نفس النظرة والسريرة، فجوة كبيرة تفصله عنهم دائما، شق لا يمكن رتقه، والآن هو أيضا

يجري عله يردم الفجوة ويبلغهم، في ذلك اليوم الذي حضر ليوقع في دفتر الحضور كالعادة، فوجد سيارة نصف نقل يحملون عليها ثلاجة مما يحفظ فيها العصائر، فسألهم إلى أين تتجه، فقالوا له إنها تعطلت

فقال لهم بل جديدة لم تعمل سوى أشهر قليلة

وقبل أن يكمل كلامه كانت السيارة تمرق بعيدا تلتهم عجلاتها الطريق بينما انطلق هو خلف السيارة يجري ظنا منه أنه سيلحق بهم، مازال مصرا، ليست هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها سيارة تحمل شيئا ما ولا يعلم على وجه الدقة من المنتفع الحقيقي، كم مرة رأى فيها أقراص الجبن الرومي وعصائر ومخبوزات ومختلف أنواع الأغذية معبأة في كراتين مابين محلية ومستوردة ويتعللون بإجابات غير مقنعة حتى سمع مديرهم ذو الاسم البراق للعامة والخاصة يقول لهم:

– "لا أريد أن أراه شوفوا لكم حل"

مازال يجري خلف السيارة كالمجنون عله يستطيع أن يردم الفجوة، تهل في مخيلته بعضا من العناوين التى طالعها في جريدة الصباح:

بعض الفنانين يسهرون حتى الصباح في فيلا أكبر بلطجي في مصر

وخروج فاسد كبير بريء من كل الإتهامات التي نسبت إليه، ومن كرم أخلاقه لن يقاضي من لوثوا اسمه ولن يطالب بتعويض عن

الضرر المادي والمعنوي الذي لحق به وبأسرته

مازالت صورة زوجته الباكية هلعا خوفا على ابنيهما تطارده، يتبادل ساقيه العدو والوثب، علقت الرمال بحذائه من الداخل والخارج وامتدت حتى سرواله وقميصه، قلبه يكاد يتوقف عن النبض من الإجهاد فيصاب باليأس، يتوقف عن العدو غير المتكافيء، جسده يتفصد عرقا، يجلس على مقعد انتظار الباصات ليستريح بعد أن مرقت السيارة بعيدا، توقف حتى استراح، عاد مصحوبا بخيبة الأمل، ساخرا من نفسه وحساباتها غير الموزونة وسذاجته المفرطة، فقد تصور أن مبتغاه قطوفه دانية بينما هي منه ببعيد، مسح وجهه المغبر بعد أن اختلطت رذاذ الأتربة بعرقه غير المثمر ثم قام يسير خائر القوى، عائدا بخفي حنين.

قبر مؤقت

الروح تعاتب الجسد المتعفن

"انظر ماذا فعلت بي وبك، الديدان بكافة الأحجام ترعى فيك، مأدبة كانت تطلع إليك طوال سنوات عمرك المحدودة" بينما أعاني الجوع ولم أبلغ حد الكفاف يوما ما داخل جسدك، كان هذا الجسد يعاني التخمة، كم أطعمته من حرام، كان القوم من حولك يقولون نعرف أننا لكي نبلغ هذه الوظيفة لابد أن ندفع لكن المشكلة أننا لا نعرف لمن ندفع، كان هذا يقال تحت سمعك وأنت لا تفصح عن نفسك حتى تحتفظ بينهم بهالة من الوقار الكاذب، وهم يظلون يلهثون حتى يعرفوا الوسيط غير النزيه، والسبحة لا تغادر يدك فضلا عن مكافآت الحج والعمرة التي تستبيحها لك ولذويك لتحرص على صورتك المزيفة.

الجسد المتورم بفعل الغازات الناتجة عن كثرة التخمر في أحشائه يعاني الانتفاخ ومرحلة الجيف ومواضع شهوته ينعت بها الدود والذي يعبر جوفه إلى فمه فينسحب على السرير ليلتقي بالدود الخارج من قضيبه ودبره ليحيطوا به كمجال غير منتظم من الدود

لدرجة أن اللسان الذي كان يلوك الحرام من الطعام والغيبة والنميمة، الآن يتأفف من الدود الذي يعبره للخارج، فيقول الجسد:

"متى يكتشفون أن الحياة فارقتني ولم أعد قادرا على دفع القاذورات عني كما كنت، ألا من ستر لما أنا فيه سيأتون بعد أن تنفجر أحشائي لينتشر الدود ببيتي الفاخر وفراشه الوثير وسيأتي الصحفيون يصورونني وينقلون الحدث الأسيف وسوف تلوكني الألسن مابين مذيعين بالقنوات الفضائية والعامة وكل يدلوا بدلوه

الروح تتألم، تتعذب وتخشى ماينتظرها من العذاب لأنها اتخذت هذا الجسد قرارا لها فتقول له:

-"أليس هذا الجسد المتعفن هو نفسه ما كنت تقضي أوقاتا كثيرة لتعتني به أيما اعتناء مابين النظافة وزيارة الأطباء إذا مرض، وكنت تذعن صاغرا لكل رغباته من طعام وشراب ونساء تمتعنك ونسيتني فلم تصغ إلى متطلباتي، كنت أسير شهواتك، تستحق ما أنت فيه

الجسد يقول للروح:

- كفاني ما أعاني لاداعي للتقريع والتلاوم سأفضح على رؤوس الأشهاد وأترك سيرتي غير الحميدة لابني الوحيد والذي سيخجل من ذكرى أمامه

الروح كمن ينتظر الحكم بالإعدام، تقول:

- أما زلت تفكر في الدنيا وأهلها ألا تفكر فيما ينتظرنا من حساب وعذاب، وأين ابنك الذي أنبته من حرام تركك للدود ولم

يستر لحمه.

الجسد المتداعي يقول: "عاودت صيغة اللوم"

الروح :

– بل أدرك العذاب المقيم لنا، الآن بلغت رائحتك النتنة الجيران أبلغوا الشرطة التي غفلت عنك في حياتك، هاهم على الباب الشرطة والإسعاف.

الجسد يتألم فيقول:

– يالها من فضيحة.

الروح تقول وابنك حضر بعد موتك بأسبوع، والجميع يغالب نفسه ويدخلون غرفة نومك "قبرك المؤقت"وهم يضعون المناديل على أنوفهم بما فيهم ابنك، فيعودون بظهورهم مسرعين ليخرجوا من بيتك تماما، طبيب الإسعاف يهاتف أحدهم فيقول

"لايمكن نقله إلا بالسرير، أنت لاتتصور المشهد كما أراه" لا يعرف مايقوله الآخر فقط طبيب الإسعاف يقول لابد أن يحضر أحد من مستشفى الحميات يساعدنا في نقله لايمكن حمله بالطريقة المعتادة، ويقومون بتطهير المكان بعد إخلائه من الجثة حتى لاينتشر مرض أو ميكروب هنا أو هناك.

الجسد المتألم يقول:

– حتى ابني عافني لكم فعلت من أجله.

الروح الخائفة تقول:

–"وتركت مالك الذي تكسبته من حرام لتلقى بسببه في جهنم.

الجسد الأسيف يقول:

"الحقيقة موجعة"

الروح تقول:

– حضر مندوبين من مستشفى الحميات، كل منهما حاملا لإناء كبير على ظهره موصول بخرطوم ينتهي بمبسم في يده، قاموا بالرش من على الباب وطيلة تقدمهما إلى داخل الشقة وعلى وجه كل منهما قناع، والأيدي محفوظة داخل قفاز من المطاط، أكثروا من الرش على الجثة حتى توقفت الديدان عن الحركة وبالفعل قاما بوضع فراش من الجلد على الأرض، وبمساعدة الابن وأحد رجال الشرطة حمل كل منهم الجثة من طرف ملاءة السرير ووضعوها على الفراش الجلد ولفوه به دون حبك حتى لا ينفرط وكلما طويا جانب قاموا بتدبيسه بإحكام حتى أتموا إغلاق الجلد عليه فبدا كمن وضع في جراب محكم الإغلاق ثم رفعوه على حامل ليتمكنوا من نقله بالسيارة.

الجسد الذي رافقته الروح يقول:

"ياليتني قدمت لحياتي"

الروح تقول:

– زالت عنك الغشاوة فسوف تدفن دون غسل

الجسد يقول:

– والصحفيون أحاطوني لينقلوا الخبر كما توقعت

الروح:

– دع عنك هذا كله وانشغل بعملك الذي ستكتبه بيدك على كفنك

الجسد الساعي لإيجاد مخرج:

– "لم يلفوني في كفن"

الروح المتداعية تقول:

– "كفنك هو مايحتويك"

الجسد يقول :

– طالما أنني الذي سيكتب فلن أذكر سوءاتي.

الروح ساخرة تقول:

"اليوم جوارحك لن تأتمر بأمرك وإنما بأمر خالقها" انظر الآن خرجت من بيتك الفخيم، لم تسطع أن تدفع الجيف عن نفسك، تاركا من خلفك عطورك الفاخرة وملابسك الأنيقة فكم كنت متأنق وسيارتك وأموالك، كأنك كنت في حلم طويل استيقظت منه على نتن رائحتك وهم ينظفون المكان منك حتى يستطيعوا العيش بأمان.

وشائج

أخرج من جهة عملي، مثقلة بساقيَّ المتورمتين، فقد ظللتُ فترة طويلة، في وضع قائم، يُحَوِّمُ حول رأسي، كروان يصدح بصوته الشجيِّ، يجوب السماءَ، وفضَاءً لايضيق به، غير مثقلٍ بهمٍّ وكأن العالم خلق من أجله، رهن إشارته، وتشريحيًّا يحمل داخله حويصلة هوائية، ليصبح وزنه وزنه خفيفًا، تدعمه في الحركة والطيران، فينطلق دون معوق، صوته يعبر في دفقات من حنين ونقاء، وسهولة في التعبير، عن مكنون ينفض عن نفسه، أية قيود تحجب عنه انطلاقًا هو له تواق، أدير رأسي تجاه بائعة الخضروات، اقترب لأشتري (كسبرة)، أبحث بعيني عن مبتغاي قبل الوصول إليها، تفترش خضرواتها صندوقًا متهالكًا، تغطيها بقطعة من الخيش المبلل، وبيدها كوزا من الصفيح، توالي به رش الخيشة بين الحين والآخر، إمرأة طاعنة في السن، نحيفة الجسد، ترتسم على وجهها خطوط الزمن الطويل الذي عاشته، وجه قد من الشقاء، يتصدره ثغر ككهف مظلم فارغ، يشكو انطفاء قناديله، استرعى انتباهي منظر ساقيها، وقد انحسر عنهما سروالها، حتى ركبتيها، فبدتا شديدتا النحول، ازدهرت في خاطري أمنية مستحيلة، ماذا لو أجرينا عملية تبادل فيما بيننا، فتأخذ هي ساقيَّ، وآخذ أنا ساقيها، مضافا إليها طبقة

كثيفة، من الشعر كساقي عنز، وأقسم بأغلظ الأيمان ألا أجتهد أبدا، في إزالتة وليذهب الرجال وأذواقهم إلى الجحيم، فكم أعاقت ساقاى حركتي، ثم أطلق العنان لخيالي لأرسم لنفسي عالما آخر يخصني، فأراني بساقي العنز، أجري أو أسير هرولة، أو باستخدام الباتيناج، الذي يضاف إليه محرك نفاث، وليس العجلات التقليدية، فأسبق ذلك الطفل، الذي رأيته يعبر الشارع به، بل ولصنعت لنفسي جناحين، فأطير بدلا من السير على الأرض، أمنية قديمة استدعيها من اللاوعي، إنها الصورة التي حفرت داخلي، منذ أن كنت طفلة، أتطلع إلى العالم اكتشفه من خلال قضبان الحديد التي تتخلل الفضاء المفضي إلى النافذة، أمسك بكلتا يدي بتلك القضبان لأنظر بعيوني متفكرة، فيما يفعله جارنا صاحب برج الحمام، إنه القائد الفعلي لذلك السرب المهيب من الحمام، الذي درَّبه على الخروج والتحليق أنى يشاء حتى إذا أوشكت الشمس على

الأفول وقف يطلق صفيرًا بفمه، ويصفق بيديه، ليجمع حمائمه التي تجوب الفضاء، إنه المنطق المشترك، بينه وبين سرب الحمام، فلا هو عُلِّمَ منطق الطير، ولا الطير يعلمُ منطقَ الإنسان، والذي يبدو لي أن القريب من هذا السرب، ينبِّه البعيد منه لوجوب العودة إلى البرج امتثالا لأمر القائد، الذي لولاه لطواه التيه، وتفرقت جموع السرب المحلق، ولسار كل منهم في وادٍ آخر، كان كثير الاهتمام بذلك الجمع المختار، فقد رأيته يوما، وهو يضمد جناح حمامةٍ

كان كثير الاعتناء بها، حتى تعاود التحليق بعد أن أقعدها كسر الجناح، كنت أراها كل يوم في محاولات فاشلةٍ للتحليق، كأنها تختبر قدراتها على الطيران، فيخذلها الجناح المهيض، وترفر بجناح واحد، كانت كل يوم تفعل الشيء نفسه، تختبر قدرتها على الطيران، حتى تعافت وعادت لتشارك أقرانها، فانفرجت أساريري، وخفق قلبي وسعدت بتحليقها، ولولا القائد ما استطاعت تجاوز أزمتها، التي خرجت منها أقوى من ذي قبل، أرفع عيني للسماء لأرى السرب الذي يحلق في حضن السحاب، كأنه يتدثر به، يواريه عن عدو محتمل، حتى ولو كان رياحا باردة، وكأنه قوة أخرى تضاف إلى قوة السرب، الذي يقوده القائد، فيستدعيه وقت الأفول ويطلقه في عين الشمس، متحديا حرارتها بقدرة السرب على التخلص من رمضائها.

أقف أمام تلك الطاعنة في السن أسألها: «عندك كسبرة» ؟ . ...

نعم مشيرة إليها، استغرب شكلها قبل أن أمسكها، أوراقها شعرية رفيعة، وليست عريضة على نحو ما كما هو المعتاد، اقبض عليها بيدي أقلبها، أتشممها لاستبين رائحتها المميزة. تتقلص ملامح المرأة وهي تنظر إليِ باستنكار بين لاستشعارها ريبتي.

قالت هازِئة: لي « نِطِلة قَوي « .

أضحك تندرا على استنكارها، وتوبيخها العفوي المهذب، أول مرة أسمع هذه المفردة ياترى هل هي عربية أم من بقايا لغة أقوام

مروا علينا هجرة أو غزوا.

ثم تستطرد لتقول «مدارس إيه دي اللي إتعلمت فيها»

أضعها لعدم اقتناعي بها وأقف حائرة تتردد عيني بين النظرٍ إلى البائعة والكسبرة، فزادها تصرفي ذلك حنقا، فعاجلتني صرخةً: « مدي يدك خذيها يانسوان آخر زمن»

رددت عليها باسمة، لأنفي عن نفسي هذا الادعاء: «أنا مش نسوان».

قالت: « لا والله أنت عَجَبَةْ « بنفس ملامحها المستنكرة .

كان عليَّ أن آخذها، وانا أضحك من استغراقها في تندرها.

بينما يتبادل الخلق الذين يعج بهم السوق، الأخبار المؤسفة عن الثورات في البلدان المجاورة التقطت منهم خيط الحديث، وقالت بفخر «أبويا الرجل البسيط سار في ثورة ١٩ وكل المظاهرات التي كانت تندد بالاحتلال الانجليزي، ونادى بعودة دستور ١٩٢٣، جلس ليشرح لنا

معنى دستور ١٩٢٣، ونادى بعودة سعد باشا من المنفى، كان متنور أكثر ممن تعلموا وتخرجوا من الجامعة، ولا يعرفون الكسبرة من الشبث، الناس البسطاء كانوا فاهمين وعارفين بالفطرة ولا يمكن حد يستغفلهم، كان نفسي أمشي في ثورة مثل أبي، ولكن مضى عمري ولم تتحقق أمنيتي والآن أصبحت عظمة كبيرة لا أستطيع اللحاق بالشباب»

هممت بإعطائها النقود، فجاء حفيدها الشاب ليخبرها : أن والده أرسل إليها دعوة لتحج هذا العام، فوقفت في خفة لا تناسب عمرها ولكن تناسب نحافتها وقامت بربط جلبابها حول وسطها وفردت ذراعيها تتمايل وتهز مفردات جسدها وأخذت ترقص فرحا ليهتز منها اليسير الذي تهدل وكادت أن تغيب ملامحه، ابتسم ابتهاجا لسعادتها، وأنشأت تغني:

لأجل النبي لأجل النبي لأجل النبي دي القعدة حلوة والنبي عند النبي ثم أخذت تصفق بيديها وتزغرد، فما زال الصوت فتيًّا، تنهرني أنا وبعض النسوة اللاتي تحلقن من حولها وتقول»صفقي يابت أنت وهي» ضحكنا ابتهاجا وقلنا لها في صوت جماعي»مشينا « .

مازلت أحلم بساقيها، وانصرف ودقتهما عالقة بذهني، الذي يأخذني في تطواف غير مؤطر فأقول في نفسي: لو كان سىاقاى، مثلها لكنت الآن أسبق من ذلك الصبي، الذي غادر مرحلة الطفولة، ويقبل على الانضمام لصفوف الشباب، يشي بذلك شارب مازال يرسم ملامحه في وجهٍ أمرد، رأيته يعبر شارع قصر النيل، سيرا بالبتيناج فانتابني شيئا من الخوف عليه أن تصيبه سيارة مارقة، بينما هو يمضي غير هيابٍ ولا خائفٍ من شلال السيارات المتدفق، محمولا بنقائه وانطلاقه الشفيف غير مجبولٍ على الجبن، الذي يعكر صفو داخله، يناطح الهواء بذراعيه كجناحي نسر يجوب الفضاء فخرا وتيها بقوته، التي لا تماثلها قوة طائر آخر، يقتحم فضاء الشارع

مجبرا السيارات والمارة، على إفساح الطريق له لاويًا أذرعهم جميعا ليريهم أنه صاحب الكلمة العليا، ولا سلطان قاهر عليه، بل هو الذي يقهرهم بما يرون منه من رعونة حسب مقاييسهم، ضاربا عرض الحائط بالتحذيرات، فهو ذلك الذي يهز كتفيه استخفافا ويلوح بذراعيه في الهواء كمجدافين يجوب بهما معترك الحياة بكل ما فيها، يتطلع وهو الصبي إلى جديد العالم من حوله فيرى النازحين والمطرودين من بيوتهم، وبلادهم حاملين أرواحا مهترئة ووجوها مذعورة، من مجهول يترقبهم أو يترقبونه، وهم في حاجة ماسة إلى المخلص الفارس فهو من يرى نفسه المعقود عليه آمالهم، والذي سيعيد كل شيء إلى نصابه وسيخلصهم من المتاجرين بهم، وهم كثر فلم تعد تجارة الرقيق بمعناها المحدود، الذي نعرفه وإنما تاجر الرقيق قد تكون بضاعته خطبة رنانة طنانة تنهمر على أثرها الأموال من آخرين، لهم مآرب عدة لتتماهى المصالح وتتداخل وتتلاقح بعدها يرتسم الخذلان، على نفس الوجوه المتطلعة بعد أن قبضوا بأيديهم على الوهم، فقد خبروا أنهم أروج سلعة وأرخص سلعة تماما، كالمنادين بحرية المرأة في بلادنا يتلون منمق الحرف والمفردة التي يجيدون تنسيقها أمام الشاشات فتلمع أسمائهم الصدئة لكيانات تجوس الأوحال، بينما ثوب الخلاص مبرأ من دنسهم جميعا ولن يرتديه إلا حدث صغير مثل الذي قطع شارع قصر النيل بالباتيناج، شفيف الروح وثاب الخطى صادق العزم نقي السريرة،

إنه هو وهو فقط من يحدد وجهته التي يضعها في لوحة تنشينه على أهدافه واحدة تلو الأخرى فهو من يرى نفسه الأحق بالريادة ولا يعوق حركته تقدم في السن ولا سيقان متورمة.

نثاراللحظة

قلبي يجيش بآمال عراض، ربما لحداثة سني، أرى كل من ليس له هدف أو طموح كالميت، ولأنني مفعمة بالحياة، تعودت أن أفعل ما يعن لي من أفكار، نعم البعض منها قد يفشل، والبعض قد ينجح، ولكنني أستمر في التحليق في دنيا الأمنيات.

منذ نعومة أظافري، وأنا أحب الرسم، وأهيم بالفن عموما، فدائماً كنت أحتفظ بأدوات الرسم من ألوان، كراسات ولاصقات، لم تكن حجرتي كحجرة فتاة صغيرة، بل كانت أشبه بمعرض فني دائم، ومرسماًعلى قد حال الصبية الصغيرة.

كثيرا ما تعجبني وتجذبني إليها أشياء، قد لا تلفت نظر أو انتباه غيري، ذات مرَّةٍ رأيت فتاة نوبية في المترو، تمتمتُ:

– يا الله إنها بلاتوه طبيعي، سُمرة وجهها، والعيون المكحولة، والرداء النوبي المميز، وبعضٌ من الإكسسوارات التي تميِّزُ النوبيَّات، ليتردد في خاطري قول أمي:

– الجمال هو أن يكون كل شيء في المرأة معبراً عنها، تاريخاً وثقافةً ومخزوناً حضاريا، ومن تشذ عن هذا تصبح مسخا.

أذكر أنني عندما هممت بالنزول همست في أذنها:

– ما شاء الله أنت جميلة جدا.

كنت عائدة من الكلية وفي طريقي إلى فصل محو الأمية الذي أدرس له طبقا لإرشادات الجمعية الخيرية التي اتبعها، فتيات صغيرات مابين الثانية عشرة والتاسعة عشرة، متزوجات أو مخطوبات، أحيانا تطلب المخطوبات أن تقفن مع خطابهن أمام المسجد، الذي يضم الفصول، حتى تحضرن جميعاً فأسمح لهن وكلما شاهدنَّ الشيخ قام بتقريعي قائلا:

-"المعلمة التي قلبت المسجد إلى كازينو"

أردُّ عليه بابتسامة خجول:

- يا مولانا، إنها دقائق معدودات ونبدأ الحصة.

ينصرف مبديا تبرمه:

- كان درس اليوم عن الفتحة والضمة والشدة أجهدنني، ولم تفهمن، فقلت لهن رددن معي:

- ب فتحة ب باحبك .

بكسرة ب بشدة .

ر ضمة روحي روحي جنبك.

رددن معي، ويبدو أنه رآنا كورالاً مسيئا، بعد أن انتهيت جاءني يلقي على مسامعي محاضرة، أنهاها بقوله:

- يرفع الله قدر العلم والعلماء، ولكن دون ترديد أغنية صباح .

أنقلب إلى أمي أسرد لها تفاصيل يومي، فتضحك وتجعل من الأمر دعابة

في المرة التالية أعود إلى فتياتي الحبيبات، اللآتي تتقاسمن الفقر والبؤس والجهل بينهن .

تستأذني أكبرهن أنها ستتغيب لمدة عشرة أيام .

قلت مستنكرة: ما السبب؟

ـ سوف أنزل بلدنا في الصعيد لأتزوج.

أكاد أبهت أصرخ فيها بدهشة: ألست متزوجة ولك من الأبناء خمسة؟!

ـ نعم ولكن هذا الزواج تم وأنا في الثانية عشرة، على يد محامي حتى أتم السن القانونية فنتزوج عند المأذون.

أتفكر وأنا عائدة إلى البيت في هذا التحايل، ثم في عالمي الذي بدأ يتسع فقد كانت حياتي بسيطة، وبها من الاستقرار ما جعلني أراها سعيدة، بالأمس القريب كانت المدرسة والبيت والنادي وكلها في مربع واحد وأول مرة أتجاوز هذا المربع إلى كليتي في الزمالك، ثم الجمعية الخيرية التي جعلتني أرى عوالم، ما كنت لأكتشفها لولا التجوال مع هذه الجمعية، فأرى حيوات مختلفة لآخرين، كنت أظنهم مثلي ولكنهم استدعوا دهشتي الطفولية.

فتياتي اللآتي أدرس لهن في محو الأمية كن شاشة عرض جديدة لي، أرى من خلالها بشرا يتعايشون مع ظروفهم القاسية بتقبل عجيب.

كنت أجلس انتظارا لإكتمال عشرتهن، فدار حديث بينهن

عن آمالهن البسيطة جداً في هذه الحياة، رانيا تريد أن تتعلم حتى تستطيع أن تذاكر لابنتها، ونعمة تسأل زميلتها عن التفاح، الذي تتمنى أن تتذوقه، وتشم رائحته، فأخفي دهشتي وتشكو " نعمة " من أنها تضطر أن تنزل للطابق الأسفل لتستأذن زوجة شقيق زوجها، لتفتح لها مفتاح الموتور، كلما احتاجت أن تستخدم المياه، وأنها تتمنى أن تدبر مبلغ عشرين جنيها، لتشتري مفتاحا خاصاً بها، فقد صارت تؤلمها عبارات التقريع، التي تسمعها كل مرة، وهكذا أصبحت العشرون جنيهاً مبلغاً يحتاج إلى تدبير عند البعض الذين يعيشون بيننا.

كنا نوزع عليهن حقائب شهر رمضان، التي تحتوي أرزاً ومكرونة، وكيسين من السكر، سمعتُ إحداهن تهمسُ لزميلتها بأن سعادتها وزوجها لا توصف، فقد وجدت في حقيبتها أربعة أكياس من السكر، بدلا من اثنين، حيث أنهما لا يجدان سكراً لتحلية التمر، الذي يأكلانه بالماء فقط دون سكر.

أنقلب إلى أمي التي تعلم أنني لا أحب الكوسة، فتقول:

– حكمت واليوم عندنا كوسة ولا داعي للاعتراض، فلا يمكن إرضاؤكم جميعا، أنا زهقت.

تعجبت أمي! لأني لم أنبس ببنت شفة، فقالت:

– ماذا بك اليوم ؟

تمتمت في خشوع:

– لن أعترض على أى شيءٍ بعد اليوم، كفاني ما رأيت، كادت الدموع تنساب من عينيى المغرورقتين بالدموع، ثم تلوت عليها جديد يومي، فقالت:

– وهؤلاء متماسكون نوعاً ما، هناك من يفوقهنَّ بؤسا.

تزوجت إحدى فتياتي، وجاءت بصور الزفاف، هنأتها، وسط ضحكات زميلاتها وهن يقلن:

– العقبى لك يا أبلة، هل ستدعيننا ؟

بادرتهن نعم نعم بالتأكيد، وبكل سرور .

فقلن في صوتٍ واحد:

– سنأتي كلنا، ونحن كما ترين في الصور، نعجبك نذهب إلى الكوافير، ونخلع الإيشاربات ونرتدي السواريه، ونكون عشرة على عشرة. كلما تفكرت في حالهن وأنا خالية، تتقافز الدموع من تحت أجفاني .

متاهة

بخطوات بطيئة متمهلة في غير قصد ما، متجاوزًا الغادين والرائحين، يسير وقد توحَّد كونُه ووجوده في لونٍ واحد رمادي غميق، ينتظره مجهول يُطالعه من بعيد، وقد ولَّتْ سنو الشباب الأولى، والتي صارع فيها الحياة، وتغلب على صعابها، واستقرتْ سفينتُه راسية على شاطئ الأمان في عملٍ ثابت في شركة من شركات القطاع العام، عشرون عامًا أو أكثر قليلاً، لَم يكن يتوقع أن يقفزَ هذا اليوم في سمائه بغيومه وعواصفه، عندما هبتْ رياح الخصْخَصة لتحصد الأخضر واليابس، وتَمَّ بَيْع الشركة التي يعمل بها، وبالتبعية تَمَّ الاستغناءُ عن نفر غير قليل من العاملين في هذه الشركة، وكان هو واحدًا ممن شملهم الإعفاء من العمل، فخرج يهيم على وجهه، لا يعرف ماذا يفعل بعد أن تجاوَز الخمسين من عمره!

يعترض سيره مقهى يضُم أناسًا من جميع الفئات، يجلس متَّخذًا جانبًا بعيدًا عن (زياط) بعض الشباب المجتمعين أمام كمبيوتر محمول «لاب توب»، وقد اجتذب انتباههم ما يُطالعونه، فانصرف بعينيه إلى الشارع، يحدق في وجوه المارة؛ علَّه يعثر على ما يشغله عن همِّه هو.

توارت الشمس خلْف السحاب، وخفت الضوء، وتلك هي

مقدمات الطبيعة لتُهيئنا لاستقبال جديدها، ولَم تستغرق وقتًا طويلاً في ذلك، فعلى الفور بدأ الرذاذ يتساقط من السماء بينما هو يرشف قهوته المضبوطة.

نسمات باردة سرتْ في أوصاله، أحدثتْ رجفة خفيفة؛ ولكنها لطيفة، يتنفَّس بعُمْق، تمُرُّ من أمام عينيه سيارة نصف نقل، تقلّ ثلاثة رجال وسيدتين من عمال البناء، تتراوَح أعمارهم ما بين العشرين والخمسين.

لم يعبأ الرجال بالرذاذ المتساقِط، بينما احتمت المرأة الأربعينية بطرحتها التي احتمت بها، أما الأخرى فكانتْ تحمل رضيعها، فانشغلتْ بحمايته من الرذاذ أو من النسمات الباردة، تستدير السيارة ثم تسير في الاتجاه المعاكس حتى تصل إلى الموقع المطلوب.

أرض فضاء حُفرت لعمق ما؛ لوَضْع أثاث لعمارة أو برج يسكنها بعض الطفيليات الطافية على السطح، أما الأغلبية الساحقة المطحونة، فيتطلعون إلى هذا البرج في غدوِّهم ورواحهم الذي يمد لهم لسانه غير عابئ بأسئلتهم؛ هل أنت الغريب بيننا؟ أو أننا الذين أصبحنا غرباء في بلدنا؟

يعود مرة أخرى إلى ذاته يسألها وتسأله: ماذا ستفعل في الأيام القادمة؟! هل أبقى دون عمل؟! وكيف أفي بمطلوبات القائمة اليومية لزوجة وأربعة أبناء في مراحل التعليم المختلفة؟! أبحث عن عمل آخر؟ ومثلي ماذا يمكن أن يعملَ إن كان الشبابُ بمقوماتهم الحديثة

لا يَجِدُون العمل؟ فمَن الذي سيقبل مَن لا عمل لديه؟

اثنان من أرباب المعاشات يحضران لتوِّهما، يجلسان بالقُرْب منه، يتناثَر منهما حديث مختلف ألوانه، تخترق أذنيه جملةٌ اعتراضية تكاد تكون سؤال العامة والخاصة، فيقول أحدهم للآخر: هل أنت مصدق الأزمة المالية العالمية الآنية؟

يرشف الكركديه، ثم يقول: وما ظنك بمقصدهم؟ هل فرغت مَحافظ اليهود؟

مازلتَ لم تجبني: ما مقصدهم؟

لديهم أهداف عُليا.

يرفع حاجبيه مندهشًا! ويعيد الجملة الأخيرة بصيغة الاستفهام: «أهداف عليا؟!».

نعم.

مثل ماذا؟

يعجلون بموت دولٍ طال احتضارها، ودول أخرى كانتْ قمة في الثراء، فتصبح في الحضيض.

يردّ بضيق: ألا نخرج من نظرية المؤامرة التي نحيا فيها؟!

نظرية المؤامرة موجودة في كل جزء من الأرض،

قديمة قِدم الشر، ألَم يقتل قابيل هابيل بمؤامرة؟!

ولكنهم أضيروا من هذه الأزمة.

يهز كتفيه ليؤكد وجهة نظره، ثم يقول: «تضحيات من أجل

أهدافهم العليا».

فيؤكد وجهة نظر رفيقه، ويقول مثلما يرسلون أبناءهم ليموتوا في العراق وأفغانستان من أجل أهدافهم العليا؛ تفكير شياطين!

ينصرف بعينيه مرة أخرى إلى عمال البناء، فيجد السيدة الشابة قد وضعتْ رضيعها جانبًا حتى يكون في مأمن، يبكي ويعلو صوته، تناول زميلها القصعة تحوي المخلوط ثم تهرع إلى صغيرها تخرج له عبوة لبن من قطعة قماش لم تكن محكمة عليه فأصابها من الرمل والإسمنت، فتقوم بمسح حلمة العلبة في ملابسها المزوجة بالرمل والإسمنت، ثم تدسّها في فم صغيرها

ما زال جاراه في المقهى على حديثهما عن الأزمة المالية العالمية:

نحن نستحق ما نحن فيه.

لماذا؟

لأننا لا نشاركهم رقعة الشطرنج.

كان الله في عون الأجيال القادمة.

تركنا لهم ميراثًا ثقيلاً.

في هذه المرة ألقت العاملة الشابة بالقصعة جانبًا، وأسرعت إلى رضيعها الذي همت قطة بالعبث به، نهرت القطة، وحملته مذعورة وغلبها البكاء، مع تقلُّص ملامح وجهها.

نهرها رئيسها وتم الاستغناء عنها، ولن يقبلها مرة أخرى برضيعها، تتوسَّل إليه باكية، فلا يعدل عن قراره، رغم توسلات

زملائها له.

تنصرف حاملة رضيعها، مُبدية أسى وتأثُّرًا.

يقوم مرة أخرى ليواصل السير، ولكن هذه المرة إلى بيته، يصعد السلم ويقفز أمام الباب، يضغط على جرس الباب، تفتح زوجته، امرأة أربعينية، من التطلع الأول لها يلمح سؤالها عما ينوي فعله، يرخي جفنيه ليخبئ عينيه ملقيًا عليها التحية، بينما يجلس ابنه الصغير يشاهد التليفزيون، مميلاً جسده النحيف للخلْف، يجلس بجانبه ينوء جسده بهمومه.

تجلس زوجتُه في مُواجهته، وتصرِّح بسؤالها: ماذا ستفعل؟ يجيبها: لا أعرف، لم أهتدِ بعدُ.

تعيد تذكيره برغبتها في أن يعمل في وكالة أخي صديقتها. يتذكر مقامه الذاهب الذي ولَّى، فيلوذ بالصمْت مطلقًا العنان لكلِّ الأطروحات.

حبيبان

ضع لهما اللون الذي ترغبه حسب ذوقك الشخصي تراهما فيه أمثولة لكل باحث عن الحب، وأضف حولهما ماتشاء مما يجعلهما متميزين في كل شيء، ارسم بقلمك مدينتهما ولكنهما ليسا في المدينة الفاضلة، رحابة كونية يستشعرانها فهما لايعيشان في مكان مؤطر بحدود، مقبلان على العالم بكل مابه من قبح وجمال فبهما من القبح قدر ما بهما من الجمال، إذا إلتقيا تجلى جمالهما لهما وللعالم وإذا احتجبا عن بعضهما البعض تجلى فيهما القبح، قررا ألا يحتجبا مرة أخرى لتقليص القبح في المدينة، إلتقيا ليتحديا الغياب وتنقشع غيومه، تشابكت أيديهما في إصرار لايمكن تجاوزه، أشاحا قبحهما بهدوء فعادا بنفس النظرة الأولى والكلمة الأولى ليصعدا إلى البريق الذي اختفى وأفل فيشعلان جذوته ويتجلى مرة أخرى.

هما من صناع الجمال وناظميه، عادا إلى ألق الإخفاق الأول فيذعنان من جديد كأنهما مقودان إلى حيث هما، يتحاذيان سيرا إئتلاقا جديدا لطائرهما الجميل، يحلق في فضائهما ينسج حولهما غلالة حريرية الملمس، مخملية الجوس وفي طريقهما غير المعبد رآيا مخلوقات تشبه البشر ولكن اللهيب يتصاعد من عيونهم، ويطلقون

صيحات قلوبهم المضطرمة فلا يهابانهم بل يزدادان تشبثا ببعضهما البعض ويقرران القفز السريع ليتجاوزنهم ويجتازان اللهيب الذي نالهما من سخونته فينجحان ويصبحان أكثر قوة وارتباطا ببعضهما البعض، يتندران معا ويضحكان معا على ضيق أفقهم ظنا منهم أنهم سيستطيعون النيل منهما.

براق الحب يحملهما إلى حيث يريدان، طوعا يأتمر بأمرهما، يختاران معا المكان اللذان سيحلان فيه ليفيضا على العالم القبيح من أريجهما، مازال طائرهما يحلق حولهما كأنه حارسهما الشخصي، يقودهما إلى سفوح لم تطأها قدم من قبل، يروي لها بأريحية وتروي له بنفس الأريحية، مفردات جديدة لم تطرق من قبل تضاف إلى قاموس اللغة، أي لغة تدهشهما رغم أنهما الناظمان لها، فالمفردات القديمة أصبحت تضيق بما يجيش به صدريهما، في مملكة العشاق أصبحا ملكين يصوغان ميثاق الدخول إليها وشروط العضوية فيها، فيالها من دنيا جديدة يقتحمان بها الراغبين فيها.

من جديد تبرق تلك الأجساد الملتهبة فيتشبثان ببعضهما مرة أخرى ويقفزان ويتجاوزان نفوسا تضيق بنفسها، اعتادا تجاوزها والعبور إلى بر الأمان فلن يهابانهم مرة أخرى.

في حضرة سرب مختار من اليمام والقطا حلقا صعودا وهبوطا منتظما كأنها معزوفة موسيقية يجيدان صياغتها، إبطاء وإسراع حسبما يقتضي الحال، عاصفة محملة بنوات مختلفة الألوان أحاطت

بهما، يحاولان الإفلات منها فلا يتمكنان ولم يكن أمامهما سوى أن يلقي كل منهما الآخر في يم موسى حتى يحظيا بالنجاة، لكن اليم كان لجي مليء بالدوامات التي سبحا فيها مختارين، ومن الظلمات التي بعضها فوق بعض أخذ كل منهما يدعو ربه بدعوة ذي النون: "لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين"

ومازالا يسبحان وما استطاعت الدومات أن تحجب عنهما صوت أنفاسهما المتلاحقة كأنها الشفرة التي بها يصران على التجاوز والوصول معا إلى بر الأمان، خارت قواهما، أوشكا على الاستسلام، هدأت حركاتهما، أمواج عاتية عالية ظنا أنها النهاية وأنها ستقذف بهما إلى المجهول والذي حتما سيكون يم الهلاك، وقد يبتلعهما حوت لن يلفظهما.

كان الموج في ظاهره العذاب وفي باطنه الرحمة فقد قذف بهما إلى الشاطيء حيث نور الشمس الذي غاب عنهما كثيرا فاستصعب عليهما النظر إليه من فجاجته، غير مصدقين أنهما تحت الشمس من جديد.

يتنفسان الصعداء، من حولهما الهواء طري النسمة والشمس شعاعها حاني وهما مبتلين كطفلين خرجا لتوهما من رحم أمهما، يبتسمان لبعضهما البعض رقراقين غير مصدقين ماكانا فيه وما انتهيا إليه، يجاهدان للوقوف، يتكيء كل منهما على الأخر وكأن الأخر عصاه ذات المآرب المتعددة، أخيرا انتصبت قاماتهما، يخطوان

الخطو الأول كأنهما يتعلمان السير لأول مرة، متعثرا، متمهلا، فهرولة، وعندها انطلقا مرة أخرى مكتسبين بالتجربة قوة من نوع جديد.

حملة قومية

بطول أرصفة ومحطات المترو، انتشرت إعلانات، عن بدء الحملة القومية، للنظافة الشخصية، بعد أن ضجَّ الجميع بالشكوى، من رائحة البشر، التي تظهر بوضوح، في أماكن الازدحام، وتكدس الناس في العلب الضيقة، لافتات ثابتة، على الأعمدة، والحوائط، وشاشات عرض بالصوت والصورة، تعرض صورة لدُش كبير، وأخرى الصابون بأنواعه، ومزيلات العرق، والشامبوهات، وماء التواليت .

عند المداخل، وقف مندبو الشركات المعلنة، يعرضون منتجاتهم، أحدهم يستوقف رجلاً، أطلق لحية شعثاء غبراء، تشي بالإهمال، أكثر من دلالتها على شيءٍ آخر، فضلا عن ثياب مهلهلة ،ونعل بالية، هو واحد على ما يبدو من الأرزقية:

_ تفضل هذه صابونة، تباع بخمسة جنيهات . _

"أنا بلا نسوان"، ابتعد عني، أنا أعمل ستة عشر ساعة، متصلة، وليس لدي وقت أو مال، لاستعمالها .

_ نحن نقدمها هدية، بلا مقابل، لتجربها وتشتريها فيما بعد.

_ هز الآخر كتفيه باستهانة، أشتريها فيما بعد، بخمسة جنيهات ؟

تناولها بلا اكتراث، وليس لديه أدنى نية لشرائها تبارى

المندبون، في توزيع مالديهم، داخل العربات، والممرات ومداخل المحطات .

عبر الشاشات، ظهرت ممثلة سبعينية العمر، بنصف عمرها الحقيقي، في استخفاف بعقلية المشاهدين ،وقفت تتحدث عن أهمية النظافة الشخصية، وما حفظه التاريخ للمرأة الفرعونية، من طرق للعناية ببشرتها، وطريقتها التقليدية في إزالة الشعر الزائد، ولابد أن تعود المرأة للطبيعة مرة أخرى، مثلي تماما، فكل شيء في جمالي طبيعي، وسر جمالي من مطبخي، بينما الحقيقة، أنَّ مَا بها من شد الوجه، والشفط، ونفخ الشفاه، والتبييض، وامتلاء الأرداف، وغيرها، من إبداع مراكز التجميل، في سويسرا وفرنسا .

لم يعرها أحدٌ أدنى اهتمام، ولاحتى الفتيات الصغيرات، فلكل منهم شأن يغنيه.

سيدة أربعينية، سمينة يبدو على مظهرها، الاتساخ من كل جانب ،نالت من المنتجات المجانية، الشيء الكثير، لم تستطع أن تخفض من صوتها، وهي تهاتف ابنها: بسرعة هات اخواتك الخمسة، وقفوا في مختلف المحطات، طوال اليوم، لتنالوا هذه المنتجات مجانا، وبدِّلوا الأماكن والمحطات، حتى لا يتعرف عليكم المندوبون.

ومثلها فعل المتسولون، وأصبحت وسيلة لتجميع منتجات مجانية، يقبل على شرائها، من لايستغنون عن الحموم، بعض

الفقراء لا يستحمون، واليوم ظفروا بالكثير من هذه المنتجات، انتهت الحملة الإعلانية الترويجية، فافترشوا الأرض، يبيعون ماجمعوه، في الميادين، ومواقف الحافلات، وقد حدث نوع من الإنتعاش الإقتصادي، لدى هؤلاء، فالشحاذون ،أضافوا ثمنها إلى رصيدهم، الذي يزيد ولاينقص، أما المرأة البدينة، فوفرت عناء تدبير طعام للأفواه السبعة عدة أيام.

تبارى المذيعون في الحديث، عن نجاح الحملة، بأكثر مما كان متوقعاً، ولم ينسوا التأكيد على الحاجة إلى تكرارها من آن لآخر، حتى يصبح الاهتمام بالنظافة، سلوكاً ينتهجه الفقراء، فعدة دقائق يومياً للحموم، لن تعطل عن شيء، فقط هم محتاجون، لمن يقنعهم بتحويلها إلى عادة يومية، لايمكن الإستغناء عنها.

ولم تخلُ البرامج من استضافة بعض الأطباء، الذين عدَّدوا فوائد الماء والصابون ،واستخدام اللوف، ليتخلص الجسم من سموم تضر بالكبد، والكلى.

سكان العشش، والقبور ،والنائمون تحت الكباري، وفي الحدائق العامة، ومجاذيب الموالد، والمرابطون على أعتاب المساجد، قاموا بردود فعل متشابهة، فمنهم من بصق على المذيعين، وضيوفهم، ودعموا الفعل بفاحش السباب، وبعضهم قذفوا الشاشة بنعالهم القديمة، وانتهى الأمر إلى أن أغلقوا هذه الشاشة التي لايستفيدون منها شيئاً، من شخوص ليسوا إلا تجار كلام، وكلامهم لايعبرالأثير

إلى آذانهم، وإنما يتبعثر في طبقات الهواء، فلا حاجة لهم بقوام هذه الكلمات الهش، الذي حتما سينفجر كالبالون، وينتهي على لا شيء، هم لايعرفون أن البعض منهم ،ليس لديه حمام خاص، هنا يصبح الحديث عن الحموم ترف لايبلغه هؤلاء، فمتى يعترفون.

دعـــــــوة

الوقت منتصف نهار رمضاني، وحرارة الجو تكاد تخنقه، فضلًا عن أولئك الذين ينتهكون قواعد المرور، وقد أصبح هذا أمرًا طبيعيًا، حتى إنهم ليستغربون عندما ينتقدهم أحد.

زفرات حارة تنطلق من فيه، وهو محشور داخل سيارته الأجرة، يلهث في الشوارع يبحث عن راكب يوحد الله، ناقم على كل شيء.

يرى كل مايحيط به سيئًا، تشير إليه فتاةٌ حسناء، كأنها خلقت لتفتن الناظرين إليها،

يا لذلك الضَّجر حتى هذه الغانية فائقة الجمال، لم تستطع أن تخرجه من حالة الإحباط، يتوقف لتركب، تعتدل في جلستها، في لهجة آمرة: حي السفارات . زفرّ زفرةًأخرى، كأنما تخرج من فيه نار، ظنها تخلصه من لظى يوليو: يا هانم المشوار طويل وبيني وبينك العداد.....

ردَّت فَوَّاحة الأنوثة:

طبعا، دا أنت تأمر.

يواصل إلتهام الطريق

يعطله أحدهم وهو يتحدث في هاتفه المحمول، ممسكا إياه بإحدى يديه، ويمسك مقود سيارته باليد الأخرى، فيزداد سخطه،

بينما الآخر لايعيره اهتمامًا حبكت تحب في التليفون الآن ياعم الصائم، النيلة حطت عليك وعليها.

ينظر في المرآة لرفيقته ربما شاركته سخطه، فوجدها تنظر إليه نظرات يعيبها هو كرجل ليزداد سخطه

فلا يملك سوى أن يبصق بجانبه، ويتمتم بقرف: كملت

لم تتوانى الحسناء في التعريف بنفسها مستخدمة من فنون الإغراء ما تشاء، فتمرر يدها على نهدين نافرَين، يكادان يخترقان سترتها المكتنزة بهما، ثم تنساب لتكمل المرور على مختلف أعضائها كأنها دعوة لمأدبتها الآهلة، فقال في نفسه:

! يبدو أنني الآن أقوم بخدمة توصيل الطلبات للمنازل، ياظلمة في رمضان

مازالت السيارة تلتهم الطريق

ببطيء لكثرة المعوقات، زحام، لا يفصل السيارة عن السيارة إلا مسافة قصيرة جدا، يتفصد عرقا، ينفخ، يعود لينظر في المرآة يجد الأخرى مازالت على عهدها في عرضها السخي فيعود للبصق مرة أخرى من الشباك ويتمتم في نفسه:

يوم أحداثه منتقاه لي بعناية

بينما هي لاتبالي فلديها يقين أنه سيذعن في النهاية، يمرق ويردد في نفسه:

ياما دقت على الرأس طبول،

العبي غيرها.

عملي هذا جعلني أحتك بكل الألوان، البشر التعساء والقابضين على الجمر من السابحين في ملكوت الله

قطعت عليه حبل أفكاره: توقف هنا

: العداد يشير بأن الأجرة خمسين جنيها، ينتظر أن تمد يدها بالنقود، تباغته قائلة

تعال معي كي أعطيك الأجرة، تسبقه، توليه ظهرها المشدود بردفيها المتلئين، بينما هو ينزل من السيارة ويفتحها من الخلف، يتناول عصاه التي يتوكأ عليها ليتغلب على إعاقته ثم يصعد الدرج في عجلة من أمره ماتيسر له ذلك، مع إعاقته يضغط جرس الباب، تفتح له الباب وهى عارية تماما، فيلوذ بالفرار متوكأ على عصاه قبل أن تدَّعي عليه بما هو منه براء.

دم نبيل

وَقف على حافة النافذة، مدَّ بصره باتجاهي، ثم حرك رأسه يميناً ويساراً، وكأنه تأكد من أنني أنا، ومال برأسه على ساقه اليسرى، ليحل عقدة خيطٍ، التف على هذه الساق، فظهرت من تحته، ورقة كأنها صفحةٌ من مخطوط قديم، انتزعها بمنقاره، وألقاها ناحيتي، ليعود أدراجه.

الورقة متهالكة، فضضتها برفق خشية أن تتمزق.

الذي أعلمه تماماً، أنَّ في طيِّها ما لا يمكنني التكهن به، قرأتها بتمعن، لتأخذني حالة من التفكر.

خرجت بالكاد من نفق ضيق جداً، كنت أتنفس بلهفة، كمن غاب عن صدره الهواء ردحاً من الزمن، أنظر لون بشرتي، الذي تحول إلى اللون الأزرق تمامً.

كلما امتلأ صدري بالهواء، خفَّت حدة هذا اللون، وعاودني الشعور بالراحة، والاسترخاء، حتى اختفى لوني الأزرق، ومعه ذلك الشعور المقيت بالإجهاد، سرت فوق الأرض، بانتفاء الأغلال التي أحاطتني من قبل، والتخلص من الأصفاد التي كنت بها مُقَرَّنةً، لم تَخل أنفاسي من تنهد متقطع، هرعت باحثة عن أرض خضراء،

أتلمس بعض الأكسجين، في هواء نقي، يعيد إلي عافيتي، فاهتديت إلى مرج أسرني بالروائح التي غشيتني منه، بمجرد أن وليت وجهي تجاهه، أتحسس بتلات الزهور، مخملية اللمس، وإن آلمتني بعض أشواكها، رائحتها تتمدد داخلي، لتنقيني مما علق بي، أسير كمن لا يريد أن يتوقف ،ولكنِّي آثرت الجلوس على الأرض المعشوشبة، تتخللها زهور تتمايل تداعب ملامحي في حنو حبيبين التقيا بعد طول غياب، تعيد صياغتي من جديد وأنا لها مستسلمة.

أتأمل حال الإنسان، يطوع كل شيء بحسب هواه، أنا المجلود، لا يهم مَنْ يكونُ الجلاد، المهم أنه مستمر بالجلد، ضعيف يتلظى، ويحاول التخلص من الرمضاء بالنار .

وكما أنني أصرخ فإن الجلاد يتألم، يفوح لهيبه الداخلي الذي يحرقه ببطء وحده ،حتى وإن لفظ محتواه في المجلودين، فإنه لا يمكنه التخلص من آلامه ورعونته، تلك التي تجلده أيضاً . تختلف آلة الجلد، ولكنه يبقى جلداً، عنصرية جلاد مجنون، ومجلود صامد، فإذا مات المجلود من شدة الجلد، وقف بجانب رفاقه شبحاً يطارد الجلاد ليل نهار، فيزداد سعارا، يزيد من هذا السعار صمود المجلود، ما أشبه الأمر بتك الكيانات الكبرى، التي امتلكت ما فوق الأرض، وما في باطنها، وسلحت الكواكب والأرض والبحر، ويقلقها فقط أن يعلو صوتك وتقول: لا

حتى (سالومي)، ظل الملك يراودها عن نفسها، وهي العاهرة العارية، التي ترقص بابتذال،

لم تقبل مهراً أقل من دمٍ نبيل، ولا أنبل من دم نبيٍّ، فكان لها ما أرادت.

طويت الورقة، وضعتها في جيبي، وسرت متمهلة فوق الأرض، أي أرض، لا يهم ! أرنو شاخصة.

فإذا (سالومي) ترقص عاريةً من جديد وكلما اقترب منها الملك تمنعت، فشرطها القديم مازال باقيا، المهر هو دم نبيل.

متوسلاً: ولكن لم يعد في زماننا أنبياء. قال لها

قالت له: فالأمثل فالأمثل.

استجاب دون قيد أو شرط، وقام يلقي تحت أقدامها جملة من الجماجم ،ولكنها تطمع في المزيد، فسارع في إرضائها بإلقاء المزيد من الجماجم الأخرى، ولكن شاربة الدماء لا تشبع، وكلما طلبت المزيد أعطاها، نعم لها من الجماجم ماتشاء، حتى صار العالم يباباً.

يسير آخرون فوق الجماجم، ورغم عظامهم النخرة، فهي تتطلع إلى حصد جماجمهم.

ويبقى في الأفق صغارٌ، يسيرون تتعثر خطاهم، فقد قاموا من فورهم، يتهجون أشياء (آدم) التي علمه الله أسماءَها دون ظهير يحميهم.

فمن تُراه يحميهم من بطش الملك وسطوة (سالومي)؟

تلك العارية المبتذلة !!! ، لا تشبع ولا تموت دورها قاصر على إعدام البراءة، التي صارت سُبَّةً لمن يعتنقها، وسوأة، يجب التخلص منها.

دولة البلالايكا

ضَئيل الحجم، بصورةٍ لا تخطئها العين، غليظ الصوت، تملأه ثقةٌ بنفسه، واستخفافٌ بالآخرين، عصامي، ثروته تشوبها شائبات كثيرة، كأغلب رجال الأعمال في بقعتنا المصون، له من الزوجات أربعٌ، كلهن تفوقن عليه طولا وجمالا، يحب الظهور بهن مجتمعات،

فإذا وجد العيون إليه شاخصة، وتلمس حقدهم الدفين، صاح بأعلى صوته: بفلوسي يا أولاد الكلب! خصَّص لكل واحدة منهن فيلا، مع خدم يخصونها وحدها وأولادها،

وسيارة وسائق شخصي، فإذا تناهى إلى سمعه حديث الآخرين عن هذا البذخ، علا صوته: بفلوسي يا أولاد الكلب!.

يدخل المزادات والمناقصات، وعلم وقرأ كراسة الشروط، أرسل مبعوثه لمدير المزاد، والطاقم المساعد، وقد سُرِّبت له بطريقته الخاصة، العطاءات المقدمة، فيجلس مطمئِنًا، حتى إذا فاز بالمزاد أو المناقصة، وأحس بالتشفي في المنافسين، قهقه في غرور واضح: بفلوسي يا أولاد الكلب!. راودته عن نفسها، قطعة أرض في الظهير الصحراوي، بثمن بخس، فاستدعى مستشاريه ليرسموا له الخطة

المحكمة، سُلِّمت الهدايا الباذخة لكل (بك وباشا)، فنال بغيته بأقل التكاليف، قام ببناء إسكان للشباب، بطرق مختلفة للسداد، تستنزف أكثر من ثلث دخولهم المحدودة جدا، فإذا تناهى إلى سمعه من يقول عنه أنه ظالم، متجبر، وكلهم يقولون، صكَّ أسماعهم بقوله: بفلوسي يا أولاد الكلب!

حدث ذات مرة أن تأخر في إرسال نفحة إلى (بك كبير)، من المجموعة التي يرسل إليهم النَّفحات، بصورة منتظمة، وكنوع من التحدي المتبادل، انتهى به الأمر إلى توقيفه، ثم دخوله "منتجع طره"، وأثناء انتقاله في سيارة الترحيلات، كان يجلس على كرسي فوتيه، وسبقه اثنان من موظفيه بسيارة بها تجهيزاتٍ خاصة للزنزانة المحددة له، لتليق بمقامه الرفيع، فمثله لا ينبغي أن يتساوى بأولاد الكلب، وفي السجن أقام له المساجين احتفالا يليق به، ولم لا ؟، وهو حيثما ولى وجهه، نثر المال نثرًا، ولما استولت الدهشة على العساكر، والمساجين لزنزانته وتجهيزها الفخيم، بينما هو يمشي منتشيا كالطاووس، الواثق من أنه سيخرج براءة، أيقظهم من دهشتهم صراخه: بفلوسي يا أولاد الكلب!

وفود الزوار لا تنقطع، زوجاته الأربع، لم تتخلف منهن واحدة، كن يزرنه مجتمعات، في مشهدٍ (كسرويٍّ)، مهيب، يزرنه في منتجعه، كلما رأى العيون شاخصة إليه واستشعر خبيئتهم التي

تقول: "ياليت لنا مثل ما أوتي قارون"، قال قولته المأثورة: بفلوسي ياأولاد الكلب!

. بذل محاموه جهدا غير قليل، حتى خرج من القضية معافى، بريئاً، بينما الإدانة كانت كبيرة والأدلة واضحة، ولكنه السخاء في العطاء، محامين وآخرين، من فئة البك والباشا، فضلا عن التلميع الإعلامي، فقد كان سخيًّا في البذل والعطاء، لتلك الوجوه القميئة ،التي تهل علينا عبر الشاشات ،

كان يتيه بخروجه سالمًا، ويردد بمناسبة وبدون مناسبة: بفلوسي يا أولاد الكلب! خرج من أزمته أكثر قوة، وإمعانًا في التحدي، صمم أن يقيم مشروعه الذي يحقق حلمه الكبير، قام بإزالة بعض البيوت، التي تعوق إتمامه، مع تعويض أصحابها بقليل من المال، حتى إذا أتم مشروعه وقف منتشياً مرددا قولته الشهيرة: بفلوسي يا أولاد الكلب!

بينما المضارين يذهبون هنا وهناك يخاطبون المسئولين، ربما يحصلون على التعويض المناسب، ولكن هيهات،

وبينما كانت تقرع أسماعهم قولته الشهيرة، أحسوا بمدى الظلم والقهر، وحدها امرأة من المقهورين، جابهته قائلة: لا بل بأولاد الكلب، وبفلوس ولاد الكلب!

زيارة إلى الموتى

لا بد أنك مختل العقل، هل من المعقول بعد أن استرحنا من الحياة الدنيا تعود أنت إليها مرة أخرى؟!

لي حفيد يشبهني رغم أني الجد السابع، ولم يرني أحد ممن هناك، ولا يعرفونني، لكنني سعيد بهذا الحفيد، الذي يحمل اسمي "عز الدين".. أنا فخور به، يرتدي ملابس الفرنجة، ويحمل في يده كتبًا مثلهم، ويجيد قراءتها، ويقول: إنه ينتوي أن يصبح رائد فضاء، وما فهمته من هذا الذي يريده أنه يريد أن يصعد فوق القمر.

كان ينطق الجملة الأخيرة بشيء من الهيبة والفخر، عن حفيده الذي بلغ من الرقِّي مثلما كان الفرنجة، عندما احتلُّوا مصر في القرن الثامن عشر، بينما كان المصريون في فقر مدقع، ويعانون من ذلٍّ وقهر المماليك ثم الفرنسيين الفرنجة، الذين حلُّوا على المصريين ليذيقوهم ويلات ذل آخر.

ها هو أمامي أراه ولا يراني، آنست في وجهه سمت الوجهاء، عمره عشرون سنة، ومازال دون زوجة، بينما أنا عندما كنت في مثل سنِّهِ، كانت لي زوجة وثلاثة أبناء.

الآن يجلس إلى مكتبه على عينيه نظارة لتحسِّن نظره، هكذا

يسمُّونها، وأمامه كتب كبيرة مثل تلك التي كان يكتبها الورّاقون، ولكنها أجود حتى من كتب الفرنجة، وأمامه قطعة زجاج مثبَّتة على إطار من معدن، ومتصلة بلوحة مستطيلة سوداء عليها أزرار تشبه تلك التي يضعها الخياط على الملابس، يقوم بالضغط عليها فتظهر له الكلمات مكتوبة، أسمعه دائمًا يقول: إنه يذاكر أشياء كثيرة مختلفة لتنمية مهاراته لأنه ينوي السفر إلى ألمانيا، بعد أن ينهي دراسته بمصر، لا يوجد معاهد لتخريج روّاد فضاء في مصر؛ لذلك فهو يعقد النية على السفر لإشباع تطلعاته الشخصية.

ما أسعدني! آه لو كنتَ موجودًا في زمن المماليك والفرنسيين الفرنجة؛ إذن لأطْلتَ رقابنا جميعًا أثناء سيري، لاحظت شيئًا مهمًّا، المصريون وجوههم غريبة، غير مقبلين على الحياة، أو لعلهم لا يشعرون بهذه الحياة، ردود أفعالهم غريبة، وأحيانًا متوقفة، ساهمين، شاردين، واجمين، كأنهم فقدوا القدرة على الفعل، كنت أجوب الشوارع، فشعرت أني أسير بين أموات، وليس أشخاصًا مفعمين بالحياة، يناطحون السحاب ويتحدَّون ارتفاعه، رغم أنهم أرغد عيشًا منا، ورغم فناء المماليك، وجلاء الفرنسيين الفرنجة، فمازالوا بائسين، مثلما كنا، يتجرعون المرَّ والحنظل؛ فالصدور لم تتنفس الصعداء بعد.

عز الدين يجمع أقلامه الآن ليذهب إلى الامتحان، يخطو سريعًا،

متعجلاً، يستقل حافلة كبيرة بها الركاب محشورون، تتماسُّ أجسادهم، ينفثون الإرهاق والزهق واليأس والإحباط، يطالعون من آن لآخر أساور في معاصمهم، يسمُّونها الساعات، كلٌّ له وجهته، يتدافعون في قسوة يبدو أن هذه هي جهنم، فأين الجنة إذن؟

أرى حفيدي يهرول يستقل معديَّة يعبر بها النيل، بدلاً من أن يركب حافلة أخرى تطيل الطريق وهو المتعجل.

يبدو الركاب بهيئات تشي بأنَّهم يعملون في مهن مختلفة، يتدافعون ليركبوا، كان عز الدين آخرَهم، يدير المراكبي دفّة المعدية ويتقدم في المياه قبل أن يركب عز الدين، الذي يقفز إلى المعدية فلا يتمكن، ويسقط في النيل، ويحاول الركاب استدعاء الحياة في نفوسهم لحيظات قصيرة، فيقولون للمراكبي: انتظر حتى يلحق بنا، فيقول لهم: لن أعطّل سبعين من أجل واحد، فيعودون إلى حالتهم الطبيعة من فقدان الإحساس بالحياة، ومضى قائد المعدية بقافلة الأموات بينما حفيدي يصارع من أجل البقاء، حجب الماء الهواء عن رئتيه، وكأن الماء رفق به من البقاء في عالم الموتى الذي كان يرغب في أن يغادرهم ليصبح رائد فضاء.

استسلم مذعنًا لضربات الماء الذي لا يجيد إزاحته، واستسلم جسده للرقاد، في قاع النيل ذي الفرعين، الذي كان في زماننا سبعة أفرع، مضت ثلاث ساعات حتى حضرت الشرطة واستخرجت جثّته وسجلت له شهادة بانتقاله من عالم الأموات إلى عالم الأحياء.

اسمي فاتن

طول عمري أكره اسم فاتن جداً .

لم تكن ثمة مقدمات، أو أسباب واضحة، لأن يلقى بهذه العبارة، في وجهي . احتفظت بهدوئي المعهود: ملأ الله سماءك بالأسماء التي تحبها، وأزاح عنك ما عداها.

هو يعمل في فرع آخر، لا أراه إلا في الاجتماع السنوي للشركة، نسيت الأمر، فلم أكُن بحاجة، لأسأله: لماذا يكره اسمي، وما هي الأسماء التي يحبها ؟ .

استيقظ صباحاً، أتعامل مع أبنائي ،كعادتي لا أعلق على أمور كثيرة لا تعجبني، لا أرحب بالمناقشات التي تنتهي بإصرار كل على موقفه، أتغاضى طالما أن الأمر لا يشكل خطورة عليهم، فَلأبنائي أذواقهم الخاصة بهم في مختلف أمور الحياة، بينما يرون أمهم نموذجاً تقليدياً، يعبرون عن ذلك بأنني (أبيض وأسود)، يتغامزون: (هذه هي فاتن)

عندما كانوا صغاراً، إذا راق لهم الطعام، اسمعهم وأنا بالمطبخ، يقولون لبعضهم البعض، في مرح ظاهر، "مطعم فاتن اليوم مئة بالمئة "، فإذا وضع أمامهم طعام من بقايا اليوم السابق، فإنهم يصمتون، فأدرك أنه على غير ما يرام، فأستفزهم: ها: (أخبار مطعم فاتن إيه

) ؟ يقلبون سحنتهم، يحركون رؤوسهم في استخفاف . أستغرق في الضحك، لا بأس هكذا هي الأيام ! .

أبنائي يروننني (فاتن) أكثر مما يروننني (ماما)، فكثيراً ما ينادوننني باسمي مجرداً، يرفعون الكلفة بيني وبينهم، يعتقدون أن ذلك يزيدهم مني اقتراباً، أو لعله تأكيد عفوي لهويتي، فيؤكدون محبتهم لي، كما أنا (فاتن) دون بدائل .

لا أكف عن تجوالي السريع بالبيت، تأهبا لخروجي لعملي، أشعر كأن أحدا يتبعني، أتلفت فلا أراه، كأنه يجيد نفس الحركة في ذات الوقت، فأشعر به، ولا أراه حتى يغادر أبنائي البيت، إلى مدارسهم، وأبقى وحدي، فيتمثل لي كائناً رقيقاً، جميل الخلق والمحيا بشراً سوياً.

_ " أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيّاً "، من أنت ؟ _ يجيبني بهمس رائق ودود: أنا هدوئك الذي كنت تكرهينه، في صِغَرك، ولا تطيقين أن يصفك به أحد، أتذكرين ؟ _ نعم أذكر، ولكن لماذا تمثلت لي الآن ؟

_ لأني سئمت ملازمتك.

_ لماذا؟

_ لأني أكره اسمك.

_ لماذا تكرهه؟.

_ لأنه الفتنة، أصل كل شر.

_ ولماذا تأخذ معناه السيئ ؟ لماذا لا تميل إلى معناه الآخر ؟ .

_ ألا تَرَيْنَ أنك تخادعين نفسك ؟ الفتنة سابقة على كل كارثة .

_ بحسبك أن تدرك مدى مغالاتك، وتعصبك لرأيك، رغم مجانبته الصواب .

_ بل أنا محقٌّ جداً .

_ وماذا بأيدينا، وارتباطنا من إملاءات القدر ؟ .

_ سآوي إلى جبل يعصمني.

يعصمك مني ؟ لا عاصم لك من القدر .

_ إذن فلتغيري اسمك .

_ لن أغيره، وإن قبلتُ، فهل هذا ممكن ؟ .

_ نعم، فقد أعلن عن سباق لتغيير الأسماء .

_ ولو كنت لا أرغب ؟.

_ ولكني أرغب، وقد أرهقتني، ولكي احتملك، ساعديني بتغيير اسمك .

_ لنذهب إلى السباق معا .

يهدأ (الهدوء)، الذي استفزه اسمي .

أهرع إلى الحاسوب، أبحث عن السباق، ، أسجل كل البيانات كاملة، ألتفت إليه، انفرجت أساريره المنقبضة أذهب برفقته، يلازمني، كالعادة نجلس سويا لا يراه غيري الوجوه حولي مستبشرة بينما أنا أتوجس خيفة .

يرتفع صوتٌ يهزُّ القاعة: كل متقدم يقف هنا، على هذه المنصة (التي تلوحُ كأنها مقصلة) وأمامه مرآة كبيرة بجانبها زر يضغط عليه، لينخلع اسم المتقدم ،ومعه شكله وسمته، لدرجة أنه لا يمكنه التعرف على نفسه، فإن لم تعجبه الفكرة، فليضغط على الزر الآخر، فيعود لسيرته الأولى، أما إن ألقى اسمه في هذه البئر، فلن يستطيع استعادته مرة أخرى، وسوف ينتقل للخطوة التي تليها، وهي التقاط بطاقة، من هذا الوعاء باسمه الجديد ،وشكله وسمته الجديد .

البعض يكمل إلى النهاية، والبعض كان يتراجع، حتى إذا كان الدَّورُ عليَّ، وقفت أمام المرآة، يكاد ينخلع قلبي ويلازمني ذلك الشبح (هدوئي)، والذي ساعدني، على رباطة جأشي، لكي أكمل دون تراجع ،تصلب جسدي وأصبح مصمتاً، ضغطت على الزر، بيد مرتعشة، فانتزع لي اسماً وشكلاً وسمتاً، فلم أعد أعرفني، واختفى هدوئي، ولم أعد أراه، يا الله: كان يرافق (فاتن)، وزال بزوالها .

احتبست أنفاسي، أكاد اختنق، أشعر بالضياع، ماذا لو حل بي شكل وسمت لا أرغبه ؟ كيف أنعم بالسلام النفسي الذي عشته من قبل ؟، وكيف أتقبل هذا الشكل ،والسمت الجديد ؟ وهل سيتقبلني مجتمعي ؟، وماذا لو رفضوني ؟ وماذا لو رفضني هدوئي الذي كان ؟.

دهرٌ طويل من التفكير كاد يعصف بي يتعجلني المذيع: من فضلك خذي القرار سريعاً ، ، الوقت ليس في صالحك .

نعم سآخذ القرار، ضغطت على الزر الثاني، لأعود كما كنت، تمثل لي هدوئي مرة أخرى، قفزت سريعا من على المنصة، فكأنني ولدت من جديد، لأستكمل مسيرتي على هذه الأرض، دون تبديل لهويتي .

لانت أعضائي المتيبسة مرة أخرى، وعاد إلى نفس الشكل والسمت ،وها هو هدوئي الذي بدا أسيفاً، نظرت إليه متشحة به، ابتسمت إليه في حبور، ما كان لي من زينة النساء سواك، أنا قدرك وأنت قدري.

برفقتها

ثلاثون يوماً، أراقب هذا البيت، يتملكني شعورٌ، أن إحدى شُققهِ ستكون الغنيمة، التي أبحث عنها منذ شغلتني مظاهر الأبهة والثراء التي تبدو على أصحابها.

دوَّنت في ذاكرتي، كل التفاصيل عنهم. حانت ساعة الانقضاض ، الجيران كلٌّ في عجلةٍ من أمره، لا يلتفت أحد في الحي، وقد شغلتهم الاستعدادات للاحتفال بالعيد صبيحة الغد.

أهل هذه الشقة أتموا استعدادهم للسفر، سيمضون العيد، خارج المدينة، ربما إلى أحد المنتجعات، أو بلدتهم، حملت سيارتهم الفارهة حقائب السفر، وانطلقوا، سأتوخى الحذر ما أمكنني ذلك، لابد أن يكون قلبي ميتاً، لن أدع الخوف يعوق حركتي، لو شعر خصمي بخوفي، سينقض عليَّ بلا رحمة، لا بد أن يكون زمام المبادأة في يدي.

رغم أنها الثانية بعد منتصف الليل، وجميع الشقق الأخرى مغلقة على أصحابها، إلا أنهم ربما شعروا بوجودي، فثمة قطة جميلة الملامح، تموء في هدوء، أركلها بقدمي حتى تبتعد عني، تصمت وتبتعد قليلاً، ثم تعود للمواء، إنها إذاً تراقبني.

الويل لي لو تمكنوا مني، يتناهى إلى سمعي الآن قولهم: "حرامي

في هذه الشقة، جيراننا ليسوا فيها "لقد سافروا " أحسست حين التقت عيني مرة أخرى، بعينَي القطة أنها ترجوني: انصرف بسلام، أشحت بوجهي عنها، تمتمت كيف ؟

إنهم يبحثون عني، ويبدوا أنهم تأكدوا من وجودي في هذه العمارة، فلابد من مغادرتها على وجه السرعة، وإلا ضبطت بسرقاتي.

استدرت إليها مرة أخرى، في عينيها حنان عجيب، رقَّ قلبي لها: أعدك أن آخذك معي إذا نجوت.

اكتفيت بما خفَّ حمله، من مشغولات ذهبية، وبعض العملات النقدية، وقطعة أثرية فرعونية، أودعتها جيب سترتي على عجل.

أول مرة أكون بهذه الجرأة، اقتحم شقة في عمارة مأهولة بالسكان؟

بدايات نشاطي، كانت عملياتٍ خفيفة، هنا وهناك، أدس يدي خُفية بجيب أحدهم، قد يُكتشفُ أمري، فألوذ بالفرار، في بعض المرات، كانوا يلاحقونني، فيعييهم الامساك بي، فيعودون من حيث أتوا، وربما اكتفوا بما ألقيه مما خطفته، وكثيراً ما كانوا يتمكنون مني، فأنال على أيديهم ما لا يوصف، وكم من مرة غافلت بعض البائعين، فانتهبت مما يبيعونه في خفةٍ، أو أخطف بعض حُليِّ النساء، أو حقائبهن، ولكن سخرية واستهزاء رفقاء المهنة بي وبعملياتي الصغيرة، دعتني لأغامر بهذه العملية الثقيلة.

من هذه الشقة وحدها ،تحصلت على عشرين ألف جنيه،

عملاتٍ نقدية، ومصوغات تقدَّرُ بمئة ألف جنيه، لا بأس، لا بد أن أتريث، في عملية بيعها، فأول ما يدل رجال المباحث، علينا، تجار المجوهرات، والدليل في محلاتهم، إذاً سأحتفظ بها، لأبيعها بعد حين لتاجر لا يعرفني، ولا مانع من ارتداء فاخر الثياب ليدعم وسامتي، فلا يرتاب في أمري، القطة مازالت تتبعني، لا أدري أهي خائفة علي، أم تتحيَّنُ الفرصة لتدلهم على مكاني؟

الجلبة والأصوات الغاضبة المتوعدة، تقترب مني، لا وقت لاختيارات غير محسوبة، سأصعد إلى السطح، لأقفز إلى أقرب أى بناء مجاور، حتى يغفلوا عني.

أرى القطة تهم بمرافقتي، قلت: أخاف عليك .

فترنو إلي ببراءة تفوق تصوري.

الأصوات الغاضبة، تزداد حدَّةً، وقرباً من مكاني.

انظروا في المناور.

حسناً، إنهم لا يلتفتون إلى السطح، سأتمكن من الفرار بأمانٍ إذاً، الأفق غائمٌ، والظلام دامسٌ، سأضع ساقاً على السور المقابل، بدعمٍ من ساقى الأخرى، ومنه إلى العمارة المجاورة، أحسُّ بالأمان نوعاً ما، تتأهب القطة لتتبعني قفزاً، لم ألبث طويلاً، فهذا أحدهم يصيح: صوت ارتطام وأقدام على السطح، فلنتتبَّع خط سيره، لعله قفز إلى العمارة المجاورة.

القطة تتبعني كظلِّي، الويل لي لابد من أن أنصرف سريعا،

والسُّكان لا يخفت صوتهم ووعيدهم.

أطرق أول باب يقابلني، ربما استطعت أن أدخل فاختبئ عندهم، القطة تقف بجانبي تنتظر لم أعد متوجساً، فيها، أضغط جرس الباب، تطلُّ من ورائهِ، فتاةٌ، بقميص شفيف، يكسو جسدًا يليق بليلة العيد، تصرخ في وجهي، وتغلق الباب سريعاً، انزلقت على الدرج، متخبطاً، تحاذيني القطة عدوًا.

صارت بيننا ألفة أكثر من ذي قبل.

هذا باب آخر في الدور الذي يليه، والقطة بجانبي ترنو إليَّ بعيونها الرمادية، أشعر بقلقها عليَّ، الباب يُفتح عن شابة أخرى شبه عارية، تصرخ وتغلق الباب سريعاً، استمر في الهبوط، والقطة توازيني، قبل أن تمتدَّ يدي إلى جرس الباب أمسكني أحدهم من قفايا قائلاً: أتطرق أبواب النسوان ؟

القطة تموء حزناً لأجلي.

لحق به أربعة من أشقائه، إنهم أزواج للشابات، اللاتي تهيأن لهم، منهن من ترتدي إسدالاً، ومنهن من ترتدي نقاباً، والأبوان الكبيران يقولان:

– لماذا تفعل هذا بنفسك؟

اجتمع الجيران، وانضم إليهم المطاردون له، من العمارة الأخرى محدثين ضوضاء، أصابتني بالرعب، وهم يصعدون من مدخل العمارة، ليتبارى الكلُّ في الصفع، والبصق، والركل، في كل مكان

يتهيأ لهم من جسدي، الذي تكور على الأرض، ولم يخل الموقف من الشتم والسب، يرتفع مواء القطة، ويتلاحق كأنها تدفعهم عني، حتى حضرت الشرطة لتقتادني والقيود في معصمىَّ ،تناهى إلى سمعي، إحداهن تقول لزوجها:

– أعطه هذا العصير والسندوتش

فقال متوعداً:

. بل يبيت على البرش، وقضية ثابتة، وتامة الأركان مواء حزين، من رفيقتي التي تبعتني بعيونها الدامعة ومعها يتلاشى صوتها تدريجياً، لم تتمكن من مرافقتي في سيارة الشرطة، فطواها الغبار الذي أثارته السيارة، وهى تسارع بعيداً.